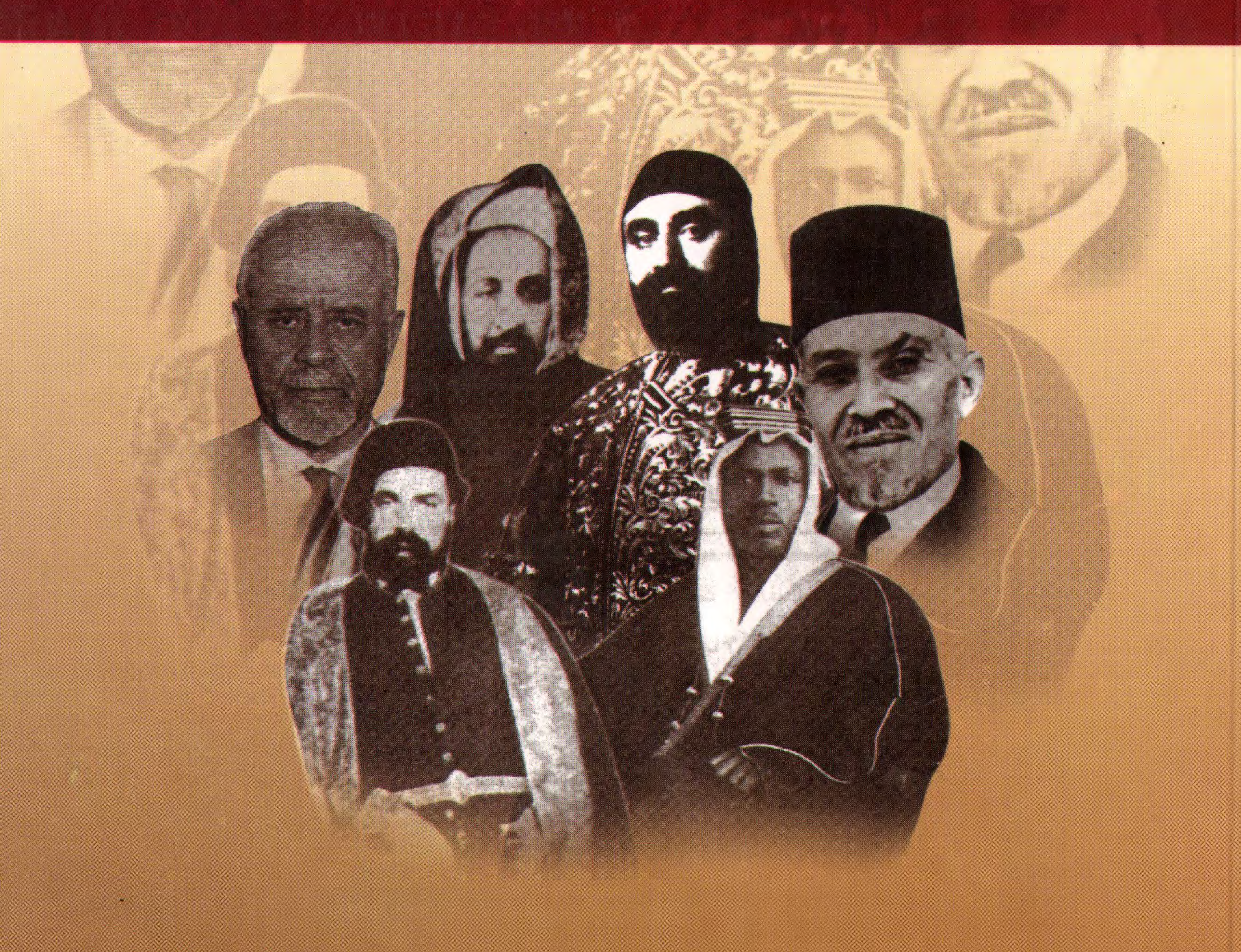
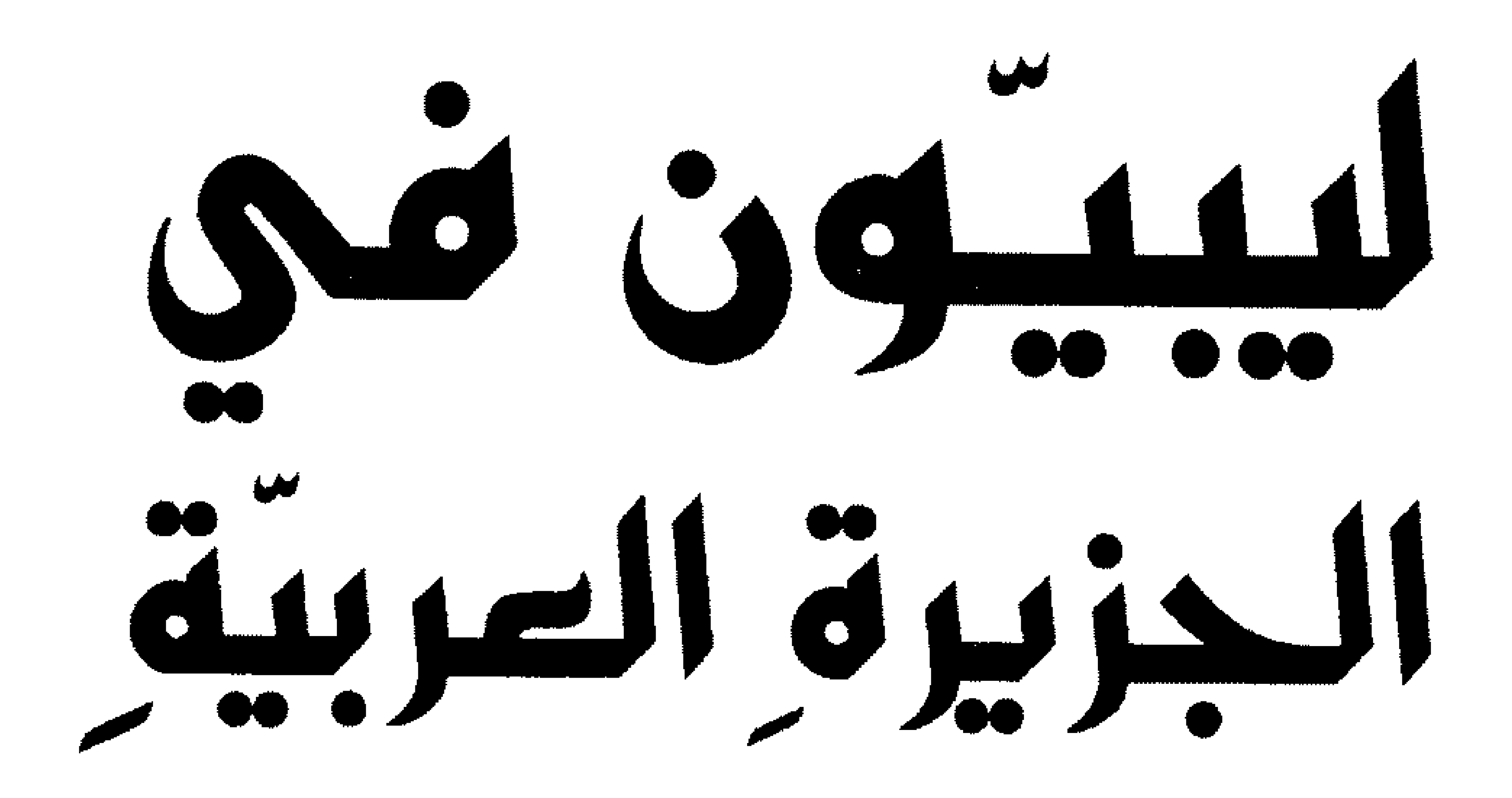
د. محمد سعيد القشاط

ليبيّون في الجزيرةِ العربيّةِ



الدار العربية للموسوعات



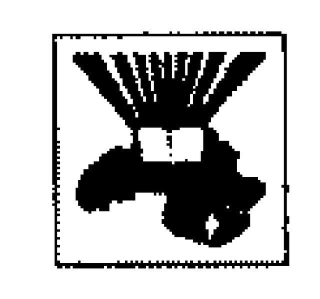
د. محمد سعيد القشاط

الدار العربية للموسوعات

لا تنسى ذكر الله

الطبعة الثانية

٢٠٠٨م - ١٤٢٨هـ



الدار العربية للموسوعات

الحازمية - مفرق جسر الباشا - سنتر عكاوي - ط1 - بيروت - لبنان
ص.ب: 511 الحازمية - هاتف: 952594 5 00961 - فاكس: 459982 5 00961
هاتف نقال: 388363 3 00961 - 525066 3 00961 - بيروت - لبنان
الموقع الإلكتروني: www.arabenchouse.com البريد الإلكتروني: info@arabenchouse.com

مؤسسها ومديرها العام: خالد العاني

الإهـداء

إلـى المجاهـديـن الليبيـين الأفـذاذ،
الذين خدموا أمَّتهم بالسيف والقلم . .
وبقي ذكـرهم عـطراً نـتـفيَّاً ظلالـه . .
إليهم أهدي هذا الجـهد المتـواضع .

د. محمد سعيد القشاط



المقدمة

وصلت إلى السعودية في أواخر ربيع عام 1999 ف. في مهمَّة عمل لم أخطط له ولم أتوقعه.

وما أن وصلت حتى وجدت آثار الليبيين قد سبقتني، وأعمالَهم المجيدة ومساهمتهم في بناء المملكة العربية السعودية الحديثة بعد أن جاهدوا ضد الغزو الإيطالي في بدايات القرن الماضي. ولزمتهم الهجرة بعد قتال دام أكثر من ربع قرن ضد دولة تعد في ذلك الزمن من أقوى الدول في العالم.

وليس بمستغرب أن يتواجد الليبيون في الجزيرة العربية فهي موطنهم الأول ونقطة إنطلاق أجدادهم عبر القرون إلى الشمال الأفريقي حاملين راية الإسلام والعروبة. وقبل ذلك حاملين حضارات الجزيرة العربية إلى أفريقيا، مؤسسين الإمارات والممالك متجاوزين الصحراء الكبرى جنوباً والبحر الأبيض شمالاً.

وحاولت أن أتعرف عن دور هؤلاء الرجال الذين عرفناهم في ليبيا، وعرفنا آثارهم فيها وإنجازاتهم الجهادية والعلمية. وغاب عنا دورهم بعد هجرتهم منها.

وافتقرت في بحثي عن رجالات القرن الماضي، ولم أشأ أن أغوص في أعماق التاريخ، فإن ذلك العمل يحتاج إلى مجهود شاق وتفرغ كامل وبحث متواصل إلى عدَّة سنوات لا يتيسر لي ذلك في الوقت الراهن.

لقد كان غرضي الإلمام بسيرة مجموعة من قادة الجهاد الليبي في الجزيرة العربية. وتوضيح دورهم في ليبيا ليتعرف عليهم إخوة لنا في جزيرة العرب، موضحاً لهم أنهم لم يستقبلوا نكرة، وأن الرجال الذين آووهم واحتضنوهم كانوا أعلاماً في بلدانهم.

إن بشير السعداوي وخالد القرقني اللذين كانا مستشارين للملك عبد العزيز رحمه الله. كانا من قادة الجهاد في ليبيا.

وإن طارق الأفريقي الذي كان أول رئيس لأركان الجيش السعودي، كان مجاهداً عربيًّا إسلاميًّا خاض المعارك دفاعاً عن حرية العرب والمسلمين في تركيا وليبيا وفلسطين، وكان عاشقاً للحرية وكارهاً للاستعمار في تطوعه للحرب في بلاد الحبشة ضد عدوّه اللدود وعدو وطنه في ذلك الزمن إيطاليا.

وإن الشيخ سليمان باشا الباروني الذي أصبح مستشاراً للسلطان تيمور سلطان عُمان، ومستشاراً للإمام محمد بن عبد الله في عمان الداخل. كان قائداً للجهاد في وطنه، ورب السيف والقلم، وعالماً من علماء ليبيا الأفذاذ.

وأحمد الشريف الذي استقبله الملك عبد العزيز بالمدينة المنورة

عندما ضاقت به السبل وصكت بريطانيا وفرنسا وتركيا الملحدة في وجهه الأبواب.

لقد كان قائداً للجهاد والمجاهدين ضد فرنسا في تشاد والنيجر قرابة الثلاثين سنة، وضد الطليان في ليبيا قرابة السبع سنوات، واستمر يصدر توجيهاته وتوصياته وفتاويه المشجعة للمجاهدين إلى آخر معاركهم في (القفرة)، (جالوا وأوجلة) في عام 1931 ف.

لقد ساهم هذا الرجل في إطفاء نار الفتنة بين الأشقاء وهو الذي كتب الاتفاق بين الملك عبد العزيز والأمير الإدريسي وحقن بذلك دماء المسلمين.

كان قصدي أن أكتب عن هؤلاء فحسب، ولكني وجدت مئات الليبيين وصلوا إلى السعودية في فترة الغزو الإيطالي. واقتصرت على هذه الفترة، ولكني لم أستطع حصرهم وكتابة تراجمهم، لكثرتهم وقلّة المصادر.

فاتصلت بأستاذنا الكبير أبو مدين رئيس النادي الأدبي في جدة، علّه يفيدني في هذه المهمة فهو من الليبيين المقيمين في هذا البلد أكثر من نصف قرن، ولم يبخل عليّ مشكوراً بذكر من استطاع تذكره، ومن أسعفته الأيام بلقائه.

ولم أشأ أن أذكر الأسر الليبية التي وصلت إلى سورية والعراق والأردن ولبنان وتركيا، حيث أن هناك مئات الأسر الليبية وصلت إلى هذه المناطق واستوطنتها وتزاوجت وتركت بنين وحفدة هم الآن من صميم المواطنين في هذه البلدان.

والتقصِّي عن هذه الأسر والكتابة عنها يحتاج إلى التفرغ والمصادر والتنقل بين هذه البلدان، وهذا ما لم يتيسر الآن وفي ظروف العمل الذي أعمل به.

فأسرة السعداوي مثلاً لها فروع في حلب هاجروا قبل الاحتلال الإيطالي، وكذلك في الإسكندرية ومكّة وجميعهم من أهالي مصراتة بليبيا.

ووجدت أسرة كبيرة في السعودية تسمى أسرة (ابن زراع) من منطقة ترهونة. هاجر أجدادهم إبان الاحتلال الإيطالي إلى مصر ومنها إلى فلسطين ثم انتقلوا إلى السعودية في بداية الخمسينات وهم الآن أسرة كبيرة تزيد عن السبعين رجلاً.

إلى جانب الأدارسة الذين جاءوا من المغرب واستقرُّوا في ليبيا ومنها وصل جدهم أحمد بن إدريس إلى منطقة الحجاز وأسس زاوية لتعليم القرآن الكريم وعلوم الدين، ثم أصبح أحد أحفاده أميراً على عسير حيث كوّن إمارة للأدارسة.

ومن المعروف أن الأدارسة هم أحفاد الحسن بن عليّ كرَّم الله وجهه وقد أسسوا دولة في المغرب الأقصى. وكذلك عائلات من السنوسيين أقرباء الأدارسة وهم جاءوا إلى الحجاز من ليبيا.

وفي هذه المقدمة السريعة لا يسعني إلا أن أشكر أستاذنا الأديب عبد الفتاح أبو مدين، إذ تفضل مشكوراً بذكر مجموعة من الليبيين أفردت لسيرتهم كما كتبها حيزاً في آخر الكتاب، لأنها لا تفي بالغرض، وآمل من الله عزَّ وجلّ أن ييسر لها من يستوفيها.

هذا، وأتمنى أن أكون قد قدَّمت شيئاً مفيداً للقرَّاء العرب عامَّة، وللسعوديين والليبيين خاصَّة لتذكيرهم بأناس خدموا وطنهم وأمَّتهم بكل تفانٍ وإخلاص، فجزاهم الله خير الجزاء.

الرياض

الجمعة 24/ يناير/ 2003

لا تنسى ذكر الله

بشير السعداوي

ولد بشير بن إبراهيم بن محمَّد السعداوي في أواسط عام 1301 هجري أوائل عام 1884 م. وهو أصغر ثلاثة إخوة: نوري وأحمد وبشير خلّفهم المرحوم إبراهيم السعداوي الذي كان مأموراً للإجراء (لتنفيذ الأحكام) بمتصرفية الخُمُسْ ثم صار أمين صندوق مركز متصرفية الخمس.

وتنتمي أسرة السعداوي إلى بني الأغلب الذين أسَّسوا دولتهم المعروفة في شمال أفريقيا في القرن الثالث الهجري والتاسع الميلادي.

أبو محمد عبد السلام بن عبد الغالب المسراتي هو الجد الأكبر لآل السعداوي والذي كانت وفاته في سنة 646 هجرية الموافق 1238 ميلادية بالقيروان. وقد عرفت القبيلة التي ينتمي إليها بشير بالغلالبة نسبة إلى جدهم عبد الغالب. وقد استوطنوا مصراتة قرب قصر حمد بجوار قبيلة (زمورة).

وكان بيت السعداوي أو أسرة الغلالبة بيت علم ودين كتب عنهم المؤرخ الليبي أحمد بك النائب وغيره من المؤلفين، وبرز من أجداد السعداوي مجموعة كبيرة اشتهروا بالعلم والصلاح منهم أبي محمد عبد السلام بن الغالب، الذي ألّف تأليفاً في الفقه سمّاه (الوجيز) نقل

(الشيخ خليل) منه شرحه على ابن الحاجب وألّف كذلك (شرح الأسماء الحسنى). و(الزهر الأنيق في قصة سيدنا يوسف الصديق عليه السلام).
ومنهم أيضاً أبو العباس أحمد بن عبد الغالب من أولياء الله تعالى وهو أخ أبي محمد عبد السلام. وأبو إسحاق إبراهيم بن عبد السلام ذكره النائب في تاريخه (كان صالحاً صوفيًا موصوفاً بالخير ونصرة الفقير وحفظ الغريب والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وكان من ذوي الكرامات وخوارق العادات. حليماً ليّن الأخلاق كريم الطباع عطاء لذوي رحمه، وصولاً لإخوانه. سالم الصدر، عفيف اللسان، شديداً لتغيير المنكر، لا تأخذه في الله لومة لائم، وكان خطيب جامع القيروان ثم ارتحل إلى مدينة تونس ثم رجع إلى القيروان حيث توفي به في الرابع والعشرين من شهر رمضان المعظم لسنة 704 هجري ودفن بباب تونس بجوار قبر أبيه[1].

ومن الغلالبة القاطنين بمصراتة كان الشيخ إبراهيم بن أحمد بن سليمان وشهرته (أبو شروحة) المسراتي وهو رجل علم ودين وارتحل إلى مصر حيث درس بالأزهر. ومنهم أيضاً أبو عبد الله محمد بن خليل غلبون المسراتي صاحب تاريخ طرابلس الغرب المسمى (التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الأخبار).

وقد التحق جد بشير السعداوي الأكبر المسمى (إبراهيم السعداوي) بخدمة الوالي العثماني القره مانلي يوسف باشا[2] (كاتباً).

(1) انظر أحمد بك النائب في تاريخه.
(2) حكم يوسف القرماه نلي ليبيا من 1794 إلى 1832 ميلادية، وقد ازدهرت البلاد في بداية عهده، الأمر الذي جعل أغلب الدول الأوروبية تدفع له الأتاوة، بما فيها أمريكا التي حاربته أربع سنوات ثم رضخت لدفع الأتاوة.

ولكن يوسف القره مانلي اكتشف ميلاً لإبراهيم نحو الثوار (عبد الجليل سيف النصر) فقبض عليه وأرسله منفياً إلى تركيا في سفينة اصطدمت بصخرة في البحر وغرقت ونجا إبراهيم الذي وصل إلى (درنة) حيث كانت السفينة بالقرب من شاطئها فاستقبله والي بنغازي وعيّنه حاكماً لمدينة درنة، بقي بهذا المنصب إلى أن أفل نجم الأسرة القره مانلية وعاد العثمانيون للحكم المباشر لليبيا عام 1835 فعاد إبراهيم إلى طرابلس. وقد كان ابن إبراهيم المدعو محمد من أهل العلم ترك مكتبة عامرة بالكتب في الدين والأدب، وهو جد بشير. وكان موظفاً بالمحاكم بالخمس، ومن هنا انتقلت أسرة السعداوي إلى الخمس وبقت بقية الأسرة بمصراتة. كما شغل إبراهيم بن محمد والد بشير منصب مأمور الإجراء ثم أمين صندوق مركز متصرفية الخمس.

نشأ بشير في الخمس حيث استقرت أسرته وحفظ القرآن الكريم فيها ثم في سرت حين انتقل إليها مع أخيه نوري عندما تم تعيين نوري (مدير مال) حيث بقي قرابة السنة عاد بعدها إلى الخمس حيث أكمل دراسته الدينية والأدبية والعلمية ثم التحق بالمدرسة (الرشدية) في الخمس. التي فتحت للتدريس وجاء من اسطنبول مدرس يدعى حقي شيناس من مدينة (ريزة) في إقليم (لازستان) على ساحل البحر الأسود[1]. وبعد تخرج بشير من المدرسة الرشدية عين (منشئاً في قلم التحريرات) في الخمس. ثم انتدب لمصاحبة قائمقام مصراتة للتفتيش على الأعشار، الأمر الذي أهّله للاحتكاك بالمواطنين في الأودية

(1) من الصدف أن بشير السعداوي أصبح فيما بعد حاكماً لمدينة (ريزة).

والمناطق البعيدة ثم عيّن مفتشاً لدوائر النفوس (أي مصلحة الإحصاء) ثم عيّن (محققاً) لمحاكمة الموظفين.

وفي سنة 1908 تولى متصرفية الخمس الدكتور رشيد وكان من كبار الاتحاديين جاء إلى الخمس بعد (الانقلاب العثماني) وإعلان الدستور حيث عيّن بشير (باشكاتباً) لمجلس الإدارة في الخمس ثم (مديراً للتحريرات) وهو من أرقى المناصب الإدارية التي يتولاها الليبيون في ذلك العهد. وبقي بشير بهذا المنصب حتى حصول الغزو الإيطالي عام 1911 م.

الاحتلال الإيطالي

لا شك أن الاستعمار الإيطالي مهّد لقدومه إلى ليبيا - كما هو معروف - بكثير من الإجراءات التي ساعدته في اتخاذها تركيا الضعيفة، فإلى جانب إرسال البعثات التجسسية. قامت إيطاليا بإنشاء (بنكو دي روما) الذي كانت من أوليات مهماته شراء الأراضي من الليبيين بعد تقديم قروض لهم والاستيلاء على أراضيهم عند عجزهم عن السداد. كما كان هذا المصرف يشتري ذمم ضعاف النفوس وقد تصدى بشير السعداوي مع كثير من النابهين الليبيين إلى مثل هذه الإجراءات. وحرضوا الناس على عدم بيع أراضيهم أو عرقلة استيلاء البنك على الأراضي. ويكتبون إلى نوابهم في تركيا في (البرلمان العثماني) ينبهونهم إلى الأخطار المحدقة بوطنهم من ناحية إيطاليا.

كما سعى بشير إلى عقد مؤتمر في الخمس يضم معظم وجهاء المنطقة من سرت إلى الخمس لدراسة الوضع. وقدوم البعثات

التجسسية الإيطالية مثل بعثة (الكونت سفورزا)[1]. وخاطب صحف العالم ببرقيات تحتج على النشاط الإيطالي في ليبيا. وفي يوم 26 سبتمبر 1911 قدمت إيطاليا إنذار لتركيا بالحرب ردَّت عليه الأخيرة بضعف. وفي يوم 3 أكتوبر 1911 قصفت البوارج الإيطالية المدن الساحلية الليبية وبالأخص مدينة طرابلس العاصمة التي حاصرها الأسطول منذ يوم 30 سبتمبر 1911، وأمهلها ثلاثة أيام للتسليم.

وهنا تمَّ تعيِّين بشير السعداوي قائمقاماً للساحل (ساحل آل حامد) قرب الخمس حيث أهلته وظيفته الجديدة للعمل بنشاط لتنظيم حركة الجهاد والدفاع عن الوطن يساعده الكثيرون من مواطنيه وعلى رأسهم الشيخ عمر النعاس والشيخ عبد الرحمٰن الزقلعي.

وهنا قرر رأي المجاهدين أن يصبح بشير رئيساً لهم، وكان يبرق إلى الحكومة العثمانية بطلب العون والمساعدة، وعدم الرضوخ إلى الطليان.

وفي يوم 20 أكتوبر 1911 ضرب الأسطول الإيطالي مدينة الخمس وحاولوا النزول إلى البر ولكنهم باءوا بفشل ذريع أمام الدفاع

(1) أرسلته إيطاليا على رأس بعثة ظاهرها الاستشكاف وباطنها التجسس، وذلك عام 1910 وعند الهجوم الإيطالي في سبتمبر 1911 على ليبيا قبض المجاهدون على سفورزا وبعثته وأسروه، ثم أطلقوا سراحه فأرسلته إيطاليا لمفاوضة المجاهدين المهاجرين إلى تونس عام 1913، ففشلت مهمته، وبعد انتهاء الحرب العالمية الثانية عينته إيطاليا وزيراً لخارجيتها وهو صاحب مشروع (بيفن سفورزا) مع وزير خارجية بريطانيا الذي يرى عودة الطليان إلى طرابلس وتبقى برقة تحت الحماية البريطانية وقد عارضه الليبيون بشدة وبكثير من المظاهرات والاحتجاجات إلى أن فشل.

المستميت من المجاهدين عن وطنهم، وكذلك الحامية التركية الصغيرة تحت قيادة خليل بك متصرف الخمس، الذي كان على صداقة وطيدة مع بشير السعداوي، غير أنهم بعد حرب استمرَّت أربعة أيَّام متواصلة تمكّن الإيطاليون من الدخول إلى مدينة الخمس.

تمركز المجاهدون بمرتفع يشرف على المدينة من جهة الغرب يسمى (المرقب) لا يبعد عن المدينة بأكثر من ستة كيلومترات، ذلك المرتفع الذي دارت عليه أشرس المعارك واستمرت خمسة أشهر إذ لم يستطع العدوّ احتلاله إلا في 28 نوفمبر 1912 بعد معركة ضارية استشهد فيها العديد من المجاهدين عليهم رحمة الله، وقد أعاد المجاهدون هجومهم على الموقع في 12 يونيو 1912، واستطاعوا أن يحطموا استحكامات العدوّ ويقتحمونها ويوقعوا في صفوفه الكثير من الإصابات، غير أن مدافع الأسطول، وقوّة نيران العدوّ وقلَّة إمكانيات المجاهدين جعلتهم ينسحبون من المواقع بعد استشهاد العشرات منهم عليهم رحمة الله.

ويقول الأستاذ خليفة التليسي: إن أربع معارك كبيرة وقعت في (المرقب)، الأولى 23 أكتوبر 1911 وقد احتل الإيطاليون الموقع وهاجمهم المجاهدون وأجلوهم عنه، بل وتابعوهم إلى الخمس حيث نشبت معركة يوم 28 أكتوبر 1911 واستمرت أربعة أيام وهي الثانية، والمعركة الثالثة وقعت يوم 27 فبراير 1912 واستمرت يوماً كاملاً، وتعترف المصادر الإيطالية بأنها كانت من أعنف المعارك وأن القتال قد جرى فيها وجهاً لوجه وجسداً لجسد. واستشهد عدد كبير من المجاهدين كما تكبد الإيطاليون خسائر كبيرة. ويقول مراسل جريدة

الكوربيري ديلا يير: إن المعركة كانت من أكثر المعارك تفرداً وبرزوا بين جميع معارك الحملة على ليبيا. . »[1].

أما المعركة الرابعة فقد جرت مساء يوم الخامس من مارس وليلة السادس منه سنة 1912 م، وذلك بهجوم من المجاهدين لاسترداد الموقع[2]. ولم يشترك بشير في معارك الخمس فحسب، بل اشترك في معارك الدفاع عن مدينة مصراتة. إذ نجد له رسالة يرسلها إلى أخيه نوري من منطقة (فلاجة) بمصراتة بتاريخ 26 يونيه 1912 يصف فيها معركة سيدي الزروق وقصر حمد واشتراكه مع أخيه أحمد في المعركة. كما يصف نقص الذخيرة واضطرار المجاهدين إلى الانسحاب أمام العدوّ ثم كروا عليه ودفعوا به نحو البحر ولم يستطع إعادة الكرة إلى يوم 9 يوليو 1912 عندما هجم على مصراتة بقوات كبيرة مدعومة من الأسطول. وقد تمَّ تعيِّين بشير السعداوي في هذه الأثناء قائمقاماً لمصراتة من طرف خليل بك وانتقل إليها كقائمقام وقائد المجاهدين حيث بدأ في تنظيم الصفوف وتجميع المجاهدين والدفع بهم باتجاه العدوّ حيث بدأت مجموعات من المجاهدين تصل من الدواخل.

استمرت المعارك في كامل المدن الساحلية، وتنادي المجاهدون من دواخل الوطن ومن فزان البعيدة للمساهمة في الجهاد، وهنا فاجأت تركيا المواطنين بعقدها الصلح مع إيطاليا حيث تنسحب من ليبيا تاركة المواطنين لمصيرهم بدون سلاح ولا مال ولا دعم. وعقدت مع إيطاليا معاهدة عرفت في التاريخ باسم (معاهدة لوزان) حيث جرت بين

---

(1) التليسي: المصدر السابق.
(2) التليسي خليفة: معجم معارك الجهاد في ليبيا ص 467.

الوفدين بمدينة (لوزان) السويسرية، وأرسل السلطان فرماناً يعلم فيه المواطنين الليبيين بأنه منحهم استقلالهم الداخلي، كما أرسل ملك إيطاليا مرسوماً يقضي بضم ليبيا إلى أملاكه، وكان ذلك في أكتوبر 1912.

الهجرة الأولى

هنا قرر الموظفون الأتراك حسب الاتفاقية الرحيل من ليبيا إلى اسطنبول، في نوفمبر 1912 غادرت باخرة تضم مجموعة كبيرة من الموظفين الأتراك مدينة الخمس متوجهة إلى تركيا، كان من ضمنهم بشير السعداوي وشقيقه نوري السعداوي.

نزل المهاجرون بمدينة (حيفا) وكان خليل بك متصرف الخمس ضمن المهاجرين، حيث انتقل مع نوري إلى دمشق وتبعهم بشير بعد أن اطمأن على المهاجرين الذين نقلهم بمساعدة قائمقام حيفا في قطار إلى دمشق حيث استقبلهم الوالي التركي بدمشق ناظم باشا والذي أحسن وفادتهم، ومن دمشق انتقل خليل بك وبشير السعداوي إلى حلب ومنها إلى اسطنبول عن طريق طرابلس الشام التي ركبا منها باخرة إلى مرفأ (مرسين) ومنه إلى (قونية) ثم إلى اسطنبول.

وصل بشير السعداوي إلى اسطنبول في الأيام الأولى من شهر يناير 1913، وكانت تركيا تشهد انقلابات متلاحقة وهزائم متتالية في الميدان العسكري. وقد غادر بشير اسطنبول متسلماً عمله الجديد كمدير تحرير في (ريزة) على البحر الأسود في إقليم لازستان لولاية طرابزون وكان أهلها من (اللاز) المسلمين ويقدرون العرب تقديراً عظيماً، وكان

إلى جانب عمله ذلك يشتغل وكيلاً للمتصرف، وكان المتصرف هو أستاذه (رشيد) الذي درس عليه في مدينة الخمس في المدرسة (الرشدية).

وفي هذه البلدة تفرغ بشير للدراسة والبحث والتنقيب في بطون الكتب غير أن هناك حادثة وقعت عكرت صفو إقامته في (ريزة)، فلقد فرَّ ثلاثة من الروس متهمين بمحاولة اغتيال القيصر إلى (ريزة) وطالبت القنصلية الروسية بالقبض عليهم وتسليمهم إلى روسيا. فقبض عليهم بشير وأودعهم السجن وخاطب جهات الاختصاص في اسطنبول في أمرهم حيث أبرقوا إليه بإطلاق سراحهم وتهريبهم من المنطقة ففعل بشير ذلك، فاحتجت روسيا وقدمت ثلاثة من سفنها الحربية إلى الميناء مهددة، وخشي العثمانيون سوء العاقبة فأرسلوا إلى بشير يمنحونه إجازة مدتها ثلاثة أشهر حتى تهدأ العاصفة.

ذهب بشير إلى بيروت لقضاء إجازته حيث يتواجد أخوه نوري كموظف هناك وأسرته، ووجد في الشام الأحوال السياسية تغلي على أشدها، والقوميون العرب يتجمعون ويخططون، ولم يلتق بشير معهم في الرأي إذ إنه يخشى في حالة انسلاخ العرب عن تركيا أن يحتل الغربيون الموقع وينفردون بالعرب، ويرى أن قوة المسلمين في اتحادهم.

وفي أواخر سبتمبر 1914 عاد بشير من إجازته إلى اسطنبول ولم يتركه زميله خليل بك يتوجه إلى مقر عمله، لأن تركيا عزمت على دخول الحرب العالمية الأولى، وقد اختصر قائد الأسطول العثماني والذي هو (ألماني) الزمن وكان في منطقة البحر الأسود فأطلق النار على

الأسطول الروسي دون استشارة رؤسائه العثمانيين، فاحتجت روسيا وغادر سفيرها تركيا في 31 أكتوبر 1914 وفي 4 نوفمبر أعلنت الحرب على تركيا.

الحرب العالمية الأولى 1914

طلب بعض المسؤولين العسكريين من بشير السعداوي اللقاء، الذي تمَّ بينهم وأبلغوا يير بضرورة إعلان الطرابلسيين الحرب على الدول الثلاث روسيا وبريطانيا وفرنسا وأن يذهب بشير السعداوي وأخوه نوري إلى طرابلس لإبلاغهم بذلك، وإبلاغ السيد أحمد الشريف بإعلان الحرب على أعداء تركيا.

وكان رأي البشير أن هذا لا يصح، والطرابلسيون يدافعون ضد الطليان الذين يحتلون بلادهم فليس من المعقول أن يعلنوا الحرب على ثلاثة دول أخرى وهم فيما هم فيه من نقص التموين والذخيرة وغيرها. وقد أبرز أنور باشا كتاباً بالتركية أعدّه لإرساله للسيد أحمد الشريف، طلب من بشير أن يترجمه بالعربية مفاده: «أننا دخلنا الحرب ضد الدول الائتلافية الثلاث (إنكلترا وروسيا وفرنسا)، فأعلنوا أنتم من جانبكم الحرب على هذه الدول». ويعده بإرسال المعدات والذخائر.

وحاول البشير التصرف في الترجمة حسب الواقع ولم يقطع بإرسال المعدات والذخائر، ولم يأمر بإعلان الحرب، فاحتج أنور على ذلك وساعده الشيخ صالح التونسي الذي أصر على إعلان الحرب، ولما كان البشير لم ترق له فكرة أن يعلن الطرابلسيون الحرب ضد هذه الدول، فقرر أن لا يسافر إلى طرابلس، واعتذر عن ذلك فتم تعيينه

قائمقاماً (لينبع البحر) بالجزيرة العربية التي وصلها عن طريق سكة حديد الحجاز.

قائمقام ينبع البحر

وصل بشير إلى المدينة المنورة في فبراير 1915، وطلب من الضابط التركي بصري باشا إيصاله إلى مكان عمله، وكانت الطريق محفوفة بالمخاطر ولا يمكن لأحد الوصول من المدينة إلى ينبع إلا بعد الاتفاق مع أحد شيوخ القبائل لحمايته. وهذا يتم عن طريق (باب العرب) وهو شخص مرموق يدعى الشيخ ناصر الذي يستدعيه الحاكم التركي ويأخذ منه المواثيق والعهود لإيصال هذا الموظف إلى مقر عمله ويتفق مع شيوخ البدو لحمايته وإيصاله سالماً.

عز على بشير السعداوي وهو الموظف الحكومي أن يذهب في حماية البدو إلى مقر عمله فجهَّز هجيناً له وهجيناً لمرافقه، واصطحب شخصين أحدهما من قبيلة حرب والآخر من قبيلة جهينة يصحباه في سفرته ومع أن بصري باشا لم يرضه هذا التصرف، إلا أن بشير أصرّ على موقفه وواصل رحلته إلى (ينبع) حيث صادفته بعض المخاطر وكاد يتعرض للقتل من قبل بعض رجال البدو ولكنه سلم ووصل إلى مقر عمله.

ووجد بشير في مدينة (ينبع البحر) نظاماً غريباً حيث إن السلطة فيها مزدوجة، إذ كان والي الحجاز غالب باشا وقد عيّن الشريف حسين في ينبع الشريف والأمير محمد بن علي بديوي شيخ عشيرة جهينة الذي كان صاحب الحل والربط في هذه المنطقة وهو الذي يجمع الأعشار والإتاوات والضرائب ويسجن ويخرج من الحبس.

رفض بشير هذه الازدواجية واجتمع مع الشريف موضحاً أنه هو القائمقام وهذه الأشياء من اختصاصه ولا يقبل بأنصاف الحلول واتفق الاثنان في ود أن يزاول القائمـقام مهامه دون إزعاج من الشريف بديوي.

قرر بشير أن يقوم بجولة خارج المدينة ليتفقد أحوال الناس وخاطب الحاكم التركي في المدينة المنورة برغبته فلم يقره ذلك على رأيه لعدم توفر الأمن وخشية من اعتداء البدو عليه وقتله.

إلا أن بشير تحمل مسؤوليته وخرج برفقة قائد الجندرمة رجب بن نجيب وهو ليبي ومدير البوليس سالم شوقي وهو ليبي أيضاً، ومعهم أخا الشريف بديوي ويدعى عبد الكريم بن بديوي وجميعهم مسلحون.

استمرت هذه الجولة قرابة الشهرين، وتعددت فيها الحوادث إلا أنها تفتقت على برنامجه الإصلاحي في المنطقة، وأحال تقريراً مفصلاً عن أحوال الناس وجهلهم التعليمي والديني وطالب بإصلاح أحوالهم.

مدرسة ينبع البحر

استطاع بشير أن يستلم المدرسة الابتدائية التركية والتي لا يوجد فيها إلا تركي لا يجيد العربية ولم يقبل عليها أغلب الناس لتعليم أولادهم.

قام بتعيين مدرس عربي يدعى خليل الحوار، وعيّن غيره من المعلمين ودعا البدو لإرسال أبنائهم للتعليم، قام بشير السعداوي بالتدريس في هذه المدرسة التي انتظم حالها وبدأت تدرس الناشئة، وفرض ضريبة صغيرة على البضائع التي تأتي للميناء لصرفها على

المدرسة وقد ألّف رواية مثلها الطلاب سمّاها (نهضة الإسلام) أعجب بها السكان الذين حضروا المسرحية.

وقد توثقت الصلات بين بشير السعداوي وشيوخ المنطقة وأمرائها، وأصبحوا ينظرون إليه بتقدير واحترام ويعتبرونه واحداً منهم. وكان العثمانيون يرسلون القوات لإخماد ثورة اليمن يدعمها الإنجليز، واضطرت القوات الإنجليزية إلى الانسحاب من لحج إلى عدن في يوليه 1915 وقد أرسلت تركيا بعثة ألمانية للوصول إلى اليمن ومنه إلى أريتريا والحبشة والسودان تحمل معدات وأموالاً لتأليب المواطنين وإشعال الثورة ضد الإنجليز، ولكن بشير استوقفها عنده خشية عليها من ثورة الشريف حسين التي بدأت تتلبد غيومها في المنطقة وأرجعها إلى دمشق، الأمر الذي جعل الألمان يمنحونه وساماً عن طريق الحكومة العثمانية.

ثورة الشريف حسين

لا أريد هنا أن أتحدث عن ثورة الشريف حسين وتقييمها، فإن عشرات الكتب تناولت ذلك، لكن يهمني أن أتتبع الأحداث مع بشير السعداوي قائمقام ينبع البحر الذي بدأ يحس بتحرّك الثورة، وقد أبلغه كل من الشيخ حسين جبارة من أهل ينبع البحر والشيخ دخيل الله القاضي قاضي عشيرة جهينة اللذين استدعاهما الشريف حسين وأعطاهما مبلغاً من الجنيهات الذهبية الإنجليزية وحرضهما على الثورة وكانا صديقين لبشير فحذراه من مغبة الأمر.

كما أبلغه أمير (أو شيخ) رابغ حسين بن امبيريك أن سفناً إنجليزية تأتي إلى ميناء رابغ وغيره محملة بالأسلحة والمال والذخائر لحساب

شريف مكة، كما أبلغ الشيخ بشير السعداوي باليوم المحدد للثورة وهو 7 شعبان 1334 الموافق 8 يونيه 1916.

وقد أبلغ السعداوي والي المدينة الذي كان يحول هذه التقارير إلى جمال باشا في دمشق، والذي تأكد أخيراً من صحة أخبار السعداوي فأمر بأن يتسع سلطان قائمقامية ينبع البحر حتى يشمل الجنوب (رابغ) إلى حدود جدة.

استعد بشير لمقابلة الثورة التي بدأت تلوح في الأفق، وبدأ يتدبر التموين للبلاد بحيث لا يؤثر فيها الحصار والدفاع عنها، وأمر بعدم خروج الأرزاق من البلد ووزع الأسلحة المتوفرة لديه على المواطنين وكوّن جيشاً صغيراً للدفاع عن البلاد يقدر بحوالي مائتين وكلّف مهندساً تركياً كان يعمل على تقطير ماء البحر للشرب بأن يصنع قنابل وأن يصلح بعض المدافع القديمة بالقلعة، وقد تمكّن من إصلاح مدفع منها، ورصد الشير ليرة ذهبية تقدم للمهندس نظير كل ما يقوم به في الإصلاح.

ولم يلبِ بصري باشا طلب بشير في إرسال جنود ومساعدات حربية له من المدينة المنورة، فاعتمد على نفسه في توفير ذلك.

اشتعلت الثورة يوم 9 شعبان 1324 الموافق 10 يونيه 1916 بأن أطلق الشريف حسين رصاصة من مسدسه في قصره بمكة صوب القلعة التركية.

ولقد سقطت حامية مكة، وفي جدة حوصرت الحامية التركية بين الشريف حسين والبوارج الإنجليزية حيث سقطت يوم 16 يونيه 1916 وقد كتب فيصل ابن الشريف حسين إلى شيوخ البدو يطلب منهم اغتيال

الضباط الأتراك والمسؤولين في (ينبع البحر) ولقد تمكن البدو من اغتيال الضابط التركي في (أوملج) واحتاط بشير لهذا الأمر، وقد كشف أحد شيوخ العرب لبشير السعداوي رسالة من فيصل بن الحسين يقول فيها: «إن ذبح القائمقام لينبع مستوجب لممنونية سيدنا فأجروا الإيجاب وعرفونا».

وقد أرسل بشير رسالة إلى فيصل بن الحسين ردًّا على رسالته يقول فيها: «اطلعت على الكتاب الذي أرسلتموه إلى الجهيني، وأني أجيبكم بأن الله عزَّ وجل لم يخلق قائمقام ينبع البحر ليذبح ذبح الشاة مرضاة لسيدك، وأنا رجل مسلم سبق أن جاهدت في بلادي قبل أن أعيّن في منصبي وأوفد إلى هذه الأراضي المقدسة، وقد بقيت أؤدي عملي على خير وجه حتى قمتم أنتم بحركتكم هذه ضد الدولة، واعتقادي أن هذه الحركة خروج عن السلطان، والنبي ﷺ يقول: «إذا أنت بايعت رجلاً ومددت له صفحة يدك، ثم خرج آخر ينازعه فاقتلوا ذاك الآخر كائناً من كان..»، ولذلك فإني أعتبركم قد واليتم الأجنبي المحارب، وفي هذا خروج من الإسلام، ومع ذلك فإذا كنتم تعتقدون أنفسكم على حق في حركتكم هذه، فلماذا لا تبينوا لي وجهة نظركم، حتى إذا اقتنعت بأنها صحيحة صرت من أعوانكم، وأما إذا كنتم انقلبتم على الدولة لتقتلوا المسلمين في سبيل شهواتكم وتنفيذ مآربكم، فلا يسعني إلا أن أبشركم بالخذلان وسوء المصير».

وأرسل بشير السعداوي رسالته هذه مع الشيخ دخيل الله القاضي إلى فيصل الذي تأثر منها واستشار دخيل الله في إمكانية استمالة السعداوي إلى صفهم، فأجابه دخيل الله: هذا مستحيل.

وقد وقفت باخرة إنجليزية قبالة ميناء (ينبع البحر) وأرسلت رسالة قالت: إنها من عزيز المصري[1] الذي يعرف بشير منذ زمن، يطالبه فيها بالتسليم، وبأن عزيز يضمن حياة بشير، فأجابه بشير على رسالته بقوله: «إنه لا قيمة للحياة عندي، ولذلك فهو لا يسلم نفسه لأجنبي أبداً، بل سيدافع عن الأراضي المقدسة إل أن يلقى ربه».

وقد التقى بشير السعداوي عام 1937 بعزيز المصري فنفى أن يكون قد أرسل إليه أي رسالة، وإنما الرسالة كانت مدسوسة من قبل الإنجليز.

وفي أواخر رمضان 1334 (أواخر يوليه 1916) وصلت دارعة إنجليزية وألقت مراسيها في البحر أمام مدينة ينبع البحر وفي يوم 26 رمضان 27 يوليه وصلت سفينة تحمل جنوداً من الهند والسودان الذين في الحجاز وأخذت في إنزالهم إلى البحر تحت حماية مدافع الدارعة.

حاول بشير أن يجهز مجموعاته للدفاع عن المدينة غير أن تدفق الجنود حال دون ذلك، فأرسل بشير رسولاً إليهم للاستفسار منهم ولكنهم قابلوه بنيران من بنادقهم، واندلقت المدافع باتجاه البلدة

(1) عزيز المصري كان ضابطاً تركياً موجوداً في ليبيا عند هجوم إيطاليا على ليبيا، ولما انسحبت القوات التركية بعد صلح (أوشي) بين إيطاليا وتركيا ترك ضابط الأتراك المهمات العسكرية لليبيين باستثناء عزيز المصري الذي انسحب بكل سلاحه وذخائره، وقد حاول المجاهدون أخذ السلاح منه فأطلق عليهم النار وأردى مجموعة منهم، ووصل بالسلاح إلى مصر والمجاهدون في أشد الحاجة إليه وهو من مجموعة القوميين العرب الذين كانوا يشتغلون في الجيش التركي وقد استماله الإنكليز إلى جانبهم وأحضروه للشريف حسين ليشرف على تشكيل قواته، وفي الحرب الثانية استماله الألمان إلى جانبهم.

وأصيبت القلعة التي يقف فيها بشير السعداوي يتابع سير المعركة بمنظاره وهدموا موقع المدفع. وظن بشير أن جنوده القليلين يستطيعون الدفاع عن البلدة، ولكن العدوّ كان يفوقهم عدداً وعدة، فاستسلموا وفوجىء بشير بالاستسلام. وكان برفقته بالقلعة سالم شوقي قومندان البوليس فأسرع للخروج منها مخافة وقوعه في قبضة الإنجليز.

«ومن يوم 29 إلى يوم 31 يوليه بقي بشير مختبئاً في أحد منازل أهالي القرية الذين آووه. وتولى أحد الشيوخ إمداده بالطعام وبعث إليه الشريف عبد الكريم بن بديوي يؤكد له أنهم جميعاً يريدون المحافظة على حياته المهددة.

وفي ليل 30 رمضان و31 يوليه وصل دخيل الله القاضي من المهمة التي كان موفداً بها إلى المدينة المنورة فوجد (ينبع البحر) تحتلها جنود الشريف حسين بن علي، فسأل عن بشير السعداوي وعرف مكمنه فجاءه ومعه ثلاثة من الشيوخ ليدبروا وسيلة خروجه سالماً من (ينبع البحر)، وقد أحضر الشيخ دخيل الله معه من المدينة المنورة حوالي الستمائة جنيه ذهباً، وقدر بشير السعداوي هذه الأمانة وهذا الوفاء تقديراً عظيماً»[1].

خرج بشير السعداوي والبعض من أعوانه منهم قومندان البوليس والشيخ دخيل الله في تلك الليلة من البلد مختبئين على ظهور الإبل إلى أن وصلوا في الصباح إلى بلدة (ينبع النخيل) حيث أقام فيها يوم أول أغسطس 1916 وجاءه خبر يفيد أن أفراداً من قبيلة (عروة) من قبائل

(1) محمد فؤاد شكري، ليبيا المدينة ص 491.

ينبع البحر يريدون أن يسدوا الطريق أمام بشير وجماعته للقبض عليه.

وفي يوم 2 أغسطس واصل بشير وجماعته سيرهم، ووجدوا مجموعة من هذه القبيلة في وادي ينبع النخيل يتجولون في الوادي بحثاً عن بشير فأرسل إليهم الشيخ دخيل الله للتفاوض معهم، ولكن المفاوضات لم تثمر عن أي فائدة. وهنا قرر بشير السعداوي الدفاع عن نفسه وجماعته فانبطح أرضاً هو وسالم شوقي والتابع الحجازي ووضعوا أنفسهم في محل للدفاع، وصوّبوا بنادقهم الموزر باتجاه المجموعة وتبادلوا معهم إطلاق النار. وكانت بنادق مجموعة عروة من النوع اليوناني القديم، فلم تستطع رصاصاتها الوصول إلى بشير وجماعته الذين كانت بنادقهم (موزر) أبعد مرمى من بنادق المجموعة، واستطاع البشير ورفيقاه قتل اثنين من المهاجمين وفر الباقون بعد معركة استمرت حوالي ثلاثين دقيقة.

ركب بشير وجماعته ظهور الهجن وأسرعوا بمواصلة الطريق وبقيت مجموعة منهم تطلق النار لحماية ظهورهم، وبذلك لم تستطع المجموعة اللحاق بهم.

في اليوم التالي وصلوا محطة قطار (بواط) ولكن العثمانيين لم يعرفوهم فأطلقوا عليهم النار، وتبادلوا الإشارات مدة من الزمن استطاعوا بعدها التعريف بأنفسهم والوصول إلى المحطة.

ومن محطة (بواط) اتصل بشير السعداوي بوالي المدينة بصري باشا الذي أذن له بالقدوم إلى المدينة، فصحب معه سالم شوقي وتوجه إلى المدينة المنورة في القطار.

وصل إلى المدينة وقابل بصري باشا الذي اندهش من نجاة القائمقام وجاء أيضاً فخري باشا المرسول من قبل جمال باشا، وحضر شرح القائمقام للموقـف واستغرب أن كيف يستطيع القائمقام الخروج من ينبع البحر وهي المطوقة براً وبحراً من الأعداء، وكان رد البشير أن الذي ساعدني على الوصول إلى المدينة هو مساعدة البدو وحبهم لي. وطلب البشير القليل من الدعم ليستطيع مهاجمة ينبع البحر وتحريرها، فقال مهدي باشا مخاطباً البشير: هل تستطيع إحضار مجموعة من مشايخهم لمقابلتي؟ أجاب بشير بالإيجاب، وخرج من عنده حيث اتصل بالشيخ دخيل الله القاضي وطلب منه إحضار مجموعة من مشايخ البدو لمقابلة الباشا التركي ووالي المدينة.

لم يمضِ أكثر من أسبوعين حتى وصل إلى المدينة المنورة في أواخر أغسطس 1916 ما يزيد على المائة شيخ راكبين الهجين، فأخذهم بشير إلى بصري باشا، ولكن طلب منه أن يحملهم لمقابلة فخري باشا والي الشريف علي حيدر.

لما تأكد لفخري باشا صدق بشير، أخذه إلى غرفة مجاورة وشرع يعانقه ويطلب منه المسامحة لأنه ظنه جاسوساً مرسلاً من العدوّ، وقد تألم بشير في أن يشك أحد في إخلاصه وولائه للدولة.

أكرم فخري باشا المشايخ ومنحهم الهدايا، وأبقى معه حوالي الاثني عشر شيخاً للاستشارة، وكان من هؤلاء الشيخ دخيل الله القاضي.

وقبل سفر المجموعة إلى ديارهم اصطحبهم البشير لمقابلة

الشريف علي حيدر الذي عيّنه الأتراك شريفاً لمكة بعد خروج الشريف حسين عن طاعتهم.

قابل بشير السعداوي الشريف علي حيدر، ولم يكن يعرف عنه شيئاً وبعد أن خرجت المجموعة من عند الشريف طلب من بشير العودة إليه غداً ليحدثه في موضوع مهم.

في الغد طلب الشريف علي من بشير السعداوي العمل مع البدو لاختطاف (فيصل بن الحسين)، أخبره بشير باستحالة هذا الطلب بهذه السهولة التي يتخيلها الشريف، وخرج من عنده ليرجع إليه بعد عدة أيام ليخبره أنه لم يستطع العثور على أحد يقوم بهذه المهمة.

امتدت ولاية بصري باشا لتشتمل إلى جانب المدينة المنورة الساحل، وأراد أن يقوم برحلة لتفقد المنطقة، صحبه فيها ألف من العساكر مع بشير السعداوي وسالم شوقي والمشايخ الذين بقوا مع الشيخ دخيل الله القاضي، واستغرقت الرحلة ثلاثة شهور ولم يقع فيها ما يسجل. ودع بشير مجموعة المشائخ عائدين إلى مضاربهم، وقد منحهم ما يستحقون من مال من خزينة بصري باشا.

انتقل بشير إلى دمشق برفقة بصري باشا بطلب من جمال باشا، ووصل بشير إلى دمشق وأثناء مقابلة مع جمال باشا أخبره هذا بأنه سيرسله في مهمة، قائلاً له: «سأبعث بك إلى مكان ليس الموت نفسه شفيعاً في عدم الوصول إليه». وقال له: إنه سيسافر إلى اسطنبول لعدة أيام وعليه أن ينتظره في دمشق.

عرف بشير أن المهمة هي إيصال أموال للحامية التركية في اليمن

تلك المهمة التي فشل فيها مجموعات من الضباط الأتراك بجنودهم فيما سبق، إذ وقعوا في أسر جيش الشريف حسين. وحاول بشير التخلص من الموضوع وانتقل إلى المدينة المنورة ولم يستطع بصري باشا الحيلولة بين البشير والمهمة، فانتقل إلى فخري باشا الذي طلب من جمال بقاء البشير معه في المنطقة لمساعدته في الدفاع عن المدينة. وكانت آخر المعارك التي التحمت فيها القوات التركية مع جيش الشريف حسين في (أبي وهيبة) و(أبيار علي) في ديسمبر 1917.

أذن فخري باشا لبشير السعداوي بالتوجه إلى دمشق مقر القيادة الرئيسي، وهنا صدر من والي دمشق أمر بتعيينه قائمقام لمنطقة (جزين) بجبل لبنان وذلك في يناير 1918.

كانت الحرب والمجاعة تقضّ مضاجع الجميع في لبنان وغيره، وكان جمال باشا يعمل على أن يوفر لجيشه التموين اللازم من المناطق التي يحكمها. واستطاع بشير السعداوي أن يعمل بما يمليه عليه ضميره ودينه وخلقه فكسب ود الجميع في الجبل ونال رضاهم عن فترة حكمه، الذي ساعده فيه أشخاص مخلصون من نفس المنطقة أمثال الخوري بطرس أبو كيم، وفيليب ناصيف، وسليم العويني وفؤاد العزوري وغيرهم.

اجتاحت القوات الإنجليزية والفرنسية المنطقة وخرجت الدولة العثمانية من الشام وخرج بشير السعداوي من جزين إلى حلب إلى بيروت حيث كانت تقيم أسرته وأخوه نوري، ومنها انتقل إلى اسطنبول ليستأذن الحكومة العثمانية بالسفر إلى باريس ليعرض على المؤتمرين

قضية بلاده (ليبيا) في مؤتمر للحلفاء الذي تقرر أن يعقد في 18 يناير 1918، وقد وجد بشير أن جيوش الحلفاء تحتل اسطنبول وقد وقّع الأتراك هدنة معهم في (مدروس). كما وجد السيد أحمد الشريف هناك الذي انتقل إلى (بروسة) وحاول معه تشكيل وفد إلى باريس، ولكن ذلك لم يتم فارتحل بشير السعداوي إلى بيروت حيث تتواجد أسرته وأخوه نوري السعداوي.

العودة إلى ليبيا

لم يكن لبشير السعداوي أي مبرر لبقائه ببلاد الشام إذ أصبح المستعمر الإنجليزي والفرنسي يحتل المنطقة، وأصبحت تركيا في فوضى بين محاربة العدوّ اللدود اليوناني وإسقاط الخلافة وصراعات بين جبهاتها ورجالاتها.

وليبيا استمرت في جهادها العام ضد الطليان في غيبة بشير، واستطاع الليبيون أن يطهروا البلاد من العدوّ ويحصروا الطليان في المدن الساحلية منذ عام 1915 م، ولم يكتفوا بهذا بل أعلنوا الجهاد على فرنسا وإنكلترا وهاجم السيد أحمد الشريف القوات البريطانية في مصر. وتوغل المجاهدون الليبيون إلى أن وصلوا منطقة الحمام قرب الإسكندرية واحتلوا واحات سيوه وغيرها، وانضم إليهم الكثير من أحرار مصر وعلى رأسهم صالح حرب بجنوده الذين كانوا تحت إمرته في حدود مصر الغربية، ولكن الإنجليز تغلبوا على المجاهدين ومن معهم من الضباط الأتراك أنور باشا، وخليل العسكري الذي جرح ووقع في الأسر ورجع المجاهدون إلى حدود ليبيا حيث اتفق الطليان

والإنجليز في برقة على الاعتراف بإدريس السنوسي أميراً على برقة ومحاصرة أحمد الشريف الذي اضطر للهجرة إلى تركيا في غواصة ألمانية سنة 1916 م، وتم اللقاء بينه وبين بشير السعداوي في تركيا (بروسه).

وهاجم خليفة بن عسكر الفرنسيين في تونس بعد ثورة الجنوب التونسي 1915 م، حسب دعاية الأتراك والألمان في أنهم سيساعدونهم. لكن ذلك لم يتم فنزح الآلاف من رجال الجنوب التونسي إلى ليبيا وواصلوا جهادهم ضد الفرنسيين في تونس في غزوات صغيرة، وضد الطليان في المناطق الغربية من ليبيا.

وتشكّلت حملة من المجاهدين بقيادة المجاهد محمد كاوسن وهاجمت الفرنسيين في النيجر وحاصروا (أقدز) عام 1916 ـ 1917 م، واستمروا في حرب المغاوير طيلة الأربعة أعوام إلى غاية 1920 م.

وبعد خروج إيطاليا من الحرب الأولى وانسحاب الأتراك من ليبيا مرة أخرى بعد عودتهم لها في الحرب وذلك عام 1918، أعلن الليبيون في غرب ليبيا (الجمهورية الطرابلسية) أما في شرق ليبيا (برقة) فلقد وقّع إدريس السنوسي مع الطليان اتفاقية الزويتينة 1916 ثم الرجمة 1917 حيث تشكّلت بموجبها (حكومة أجدابيا) التي تكون لها مجلس برلمان تحت إشراف حكومة إيطاليا وبرئاسة الأمير إدريس السنوسي.

وفي عام 1919 قرر الطرابلسيون إجراء صلح مع الطليان عرف في التاريخ باسم (صلح سواني بن يادم) ولكنه لم يعمر طويلاً، ونشبت الخلافات بين بعض الزعامات بأصابع إيطاليا، وقتل رمضان السويحلي عام 1920 في هذه الخلافات.

وفي هذه الأثناء وصل بشير السعداوي وأخوه نوري إلى طرابلس في سبتمبر 1920 إذ علم بمقتل رمضان السويحلي وهو بسرت أغسطس 1920، وكان قادماً إليها عن طريق البحر إذ أن المعارك مع الطليان لم تستأنف منذ عام 1919 ولو أن هناك مناوشات هنا وهناك.

مكث بشير في طرابلس قرابة الأسبوع حيث علم الأحداث التي وقعت بعده ثم انتقل إلى الخمس، وعند وصوله إلى الخمس شرع في لمّ شمل الإخوة المتخاصمين وإطفاء نار الفتن، فانتقل إلى مسلاته حيث اجتمع برجالاتها في منطقة شقران وسعى في الصلح بينها وبين أهالي مصراته وفعلاً وقع الصلح بين المنطقتين، واستطاع أحمد السويحلي أن يقدم إلى المنطقة ومعه عمر أبو دبوس من مصراته وبينهما الخلاف وذلك بعد زيارة لبشير السعداوي إلى مصراته وزليطن في هذا الخصوص.

كما سافر بشير إلى سرت حيث يقيم علي المنقوش قائمقاماً من قبل حكومة مصراته، وقام بجمع العشر من المواطنين فاستاء عبد الجليل سيف النصر من ذلك وقرر الهجوم على سرت وطرد المنقوش منها، ولما وصل بشير إلى سرت انتقل إلى أبي هاوي حيث يقيم عبد الجليل سيف النصر والذي تربطه قرابة مع بشير السعداوي من جهة الأم. واستطاع بشير أن يقنع عبد الجليل بالعودة إلى النوفلية مقره السابق، وأن يعيد علي المنقوش الشعير الذي أخذه من العشر السابق إلى عبد الجليل وهكذا انتهت المشكلة.

عاد بشير إلى الخمس حيث وجد مشكلة أخرى بين مصراته

ومسلاتة، إذ علم أهالي مصراته أن عبد القادر المنتصر[1] يتواجد لدى أسرة (هنيدي) في مسلاتة.

أخذ بشير مجموعة من المجاهدين وذهب إلى هناك وتأكد من أن الخبر لا أساس له من الصحة، ولكن أحمد السويحلي الذي وصل إلى الموقع أساء لشيخين من آل هنيدي فخرجت مسلاتة غاضبة من الاجتماع وأسرعت للاستنجاد بترهونة ضد مصراته، واستطاع بشير أن يخمد هذه الفتنة بعد تنقلات بين مسلاتة وترهونة ومصراته.

كان المجاهدون بل قيادات المجاهدين يستعدون لاجتماع العزيزية[2]، ولم يستطع بشير حضور هذا الاجتماع الذي كان غرضه الاستعداد لاجتماع غريان (مؤتمر غريان).

عقدت قيادات المجاهدين اجتماعاً لها في غريان في شهر نوفمبر 1920 وانتخبوا هيئة سمّوها (هيئة الإصلاح الوطني) واختاروا لها رئيساً هو الشيخ أحمد المريض زعيم ترهونة، ولم يتمكن بشير من حضور المؤتمر لانشغاله بفض المنازعات بين مصراته من جهة ومسلاتة وترهونة من جهة أخرى. وقد نجح في تهدئة الخواطر ولمّ الشمل.

غير أن قيادات الجهاد في غريان اختاروه عضواً في الحكومة الوطنية رغم غيابه، كما اختاروا أخاه نوري عضواً في الوفد الذي

---

(1) عبد القادر المنتصر من مدينة مصراته ومن أسرة المنتصر، وهي ضالعة في تعاونها مع الطليان، وعبد القادر هذا تعاون مع الإيطاليين وهو سبب المشكلة بين رمضان السويحلي وعبد النبي بالخير التي أدت إلى مقتل رمضان.

(2) مدينة بالقرب من طرابلس على بعد 40 كم جنوبها بينها وبين غريان، اتخذها المجاهدون مقراً لإدارتهم عند محاصرة الطليان في طرابلس من سنة 1915 ـ 1922.

شكلوه للذهاب إلى إيطاليا مطالباً بتنفيذ بنود الصلح (صلح بن يادم)، وكان الوفد يتشكل من: محمد فرحات الزاوي ومحمد نوري السعداوي وخالد القرقني والصادق بالحاج وعبد السلام البوصيري.

لم توافق حكومة طرابلس الإيطالية على سفر الوفد ووضعت أمامه العراقيل، ولكن أخيراً تمت الموافقة وكان خالد القرقني يقيم بإيطاليا للتجارة، فأبرق باستدعاء الوفد الذي وصل إلى روما ولم يستطع مقابلة أحد من المسؤولين فرجع إلى طرابلس.

وبدأت في هذه المدة المشاكل بين المواطنين والخصومات والمعارك أيضاً، وكان بشير السعداوي رسول السلام للهيئة إذ استطاع أن يحل مشاكل أسرة كعبار بين الهادي وأخيه المختار، وبين أسرة كعبار والمبروك القعود وعاكف، وبين الهيئة وقبيلة الأصابعة. كما حاول حل المشكل وإنهاء الحرب بين الرجبان والزنتان من جهة وخليفة بن عسكر من جهة أخرى. ووصل إلى طزين وكاد ينجح ولكن مؤامرات الطليان ودسائسهم تغلّبت على العقل ولم يستطع بشير إطفاء هذه النار التي ذهب ضحيتها الوطن، واستسلم خليفة بن عسكر على إثرها للطليان الذين لم ينسوا له معاركه معهم، فقتلوه شنقاً عليه رحمة الله في أواخر مايو 1922[1].

وعندما علم الليبيون بزيارة ولي العهد الإيطالي إلى طرابلس شكّلوا وفداً لمقابلته ونقل مطالب الليبيين، وكان الوفد برئاسة بشير السعداوي وعضوية كل من صالح بن سلطان من ترهونة وفرج بن

(1) يمكن الاطلاع على تفاصيل ذلك في كتاب (خليفة بن عسكر).

إبراهيم من مسلاتة والمبروك المنتصر الترهوني من ترهونة والحاج سلم الجباح من زليطن وعلى الشنطة دن الزنتان وراسم كعبار من غريان في حوالي الثلاثين أو الأربعين شخصا.

وقد قابل الوفد ولي العهد في طرابلس وألقى البشير خطاباً تضمن رغبة الليبيين وطموحاتهم في الاستقلال والحرية، كما قابل بشير بعض الصحفيين وتحدث إليهم ورجع الوفد إلى ترهونة دون أن يحقق أدنى مطالبه.

وقد تمَّ تعيين بشير السعداوي متصرفاً ليفرن (الجبل الغربي) ووضع تحت تصرفه مجموعة من العساكر لحفظ الأمن، غير أن الشرك اتسع، فلم يستطع كما أسلفنا تلافي فتنة الجبل ونتائجها فترك يفرن وبها مجموعة من الجنود وعاد إلى مصراته ليصطدم بالطليان في قصر أحمد الذي هاجموه يوم 26 يناير 1922 فخاض المعركة مع المجاهدين الذين أخذوا على حين غرّة، لأن الطليان نقضوا الصلح دون أن يعلموا المجاهدين، وأمام هذه المشاكل وإعلان الطليان استئناف الحرب قرر المجاهدون في طرابلس الغرب، توحيد ليبيا تحت إمرة شخص واحد يرضاه الجميع ويرجعون إلى رأيه ويقود الجهاد ضد الطليان، وقد شكل الطرابلسيون وفداً من أحمد السويحلي وعمر بودبوس ونوري السعداوي والشتيوي بن سالم والصويعي الخيتوني وصالح بن سلطان وكان معهم عبد الرحمٰن عزام المصري وتوجهوا إلى برقة لعرض الموضوع على الأمير محمد إدريس السنوسي.

وكان وفد برقة يتشكل من صالح الإطيوش ونصر الأعمى وخالد

القيصة وصالح بن عبد الهادي البراني، وفي ديسمبر 1921 جرى الاجتماع في قصر سرت وتمحض عن توقيع اتفاق ينص على توحيد البلاد تحت إمرة أمير مسلم وتوحيد الجهاد وأن تكون هناك حكومة دستورية، وأن لا ينفرد الأمير بالحكم وإنما يمارس سلطاته بإرادة الأمة.

وأعلن المجاهدون الحرب من جديد على الطليان وحاصروا العزيزية وقطعوا خط السكك الحديدية كما هاجموا صبراتة ودارت معركة الرأس الأحمر في الزاوية الغربية واستمرت المعارك سبعة عشر يوماً متواصلة واستشهدت مجموعة من المجاهدين كان على رأسهم عبد العاطي الجر ممن شجع قيادات الجهاد الليبي، وقد كان بشير السعداوي على رأس مجاهديه في الخمس ومصراته في هذه المعارك.

وطلب الإيطاليون الهدنة والعودة للمفاوضات فقبل المجاهدون ذلك، وتكوَّن وفد منهم برئاسة أحمد المريضي وعضوية بشير السعداوي وكل أعضاء الهيئة والوفد القادم من روما، وكان الاجتماع بمنطقة تسمى (فندق الشريف) قرب طرابلس وكان الوفد الإيطالي يتكوَّن من (السنيور بيلا) والمستشرق (رابكس)[1] وكان غرض الإيطاليين كسب الوقت فصم عرى التلاحم بين طرابلس وبرقة.

ولما اكتشف المجاهدون نوايا الطليان فشل الاجتماع وعاد كل فريق للسلاح، بعد أن انقطعت المفاوضات في 10 أبريل 1922 وهبت معارك الزاوية في 24 و25 أبريل وسقطت الزاوية في أيدي الطليان

(1) ألَّف هذا كتاباً ذكر فيه أحداث فندق الشريف واجتماعاته.

واستمرت المعارك خاصة بعد أن وصل الحزب الفاشستي إلى الحكم في إيطاليا والذي قرر أخذ البلاد بالقوة.

وقد وقع الاختيار من قبل قيادات الجهاد على بشير السعداوي ليمثلهم لدى حكومة السيد إدريس السنوسي في برقة كما تنص اتفاقية سرت كما وصل الشيخ عبد العزيز العيساوي ممثلاً للأمير إدريس لدى هيئة الإصلاح المركزية، وقد أكد السيد إدريس للطرابلسيين عن طريق مندوبه أن حكومة برقة لا يمكن أن تنجد الطرابلسيين أو تساعدهم ما لم تتم مبايعة الأمير إدريس السنوسي أميراً على طرابلس كما هو أمير على برقة، ورأى الطرابلسيون أن أي شيء يوحد البلاد ضد الطليان سينهجونه فشكّلوا وفداً برئاسة بشير السعداوي يحمل البيعة إلى الأمير إدريس السنوسي وكان برفقته عبد الرحمٰن عزام والصادق بالحاج، ووصل الوفد إلى أجدابية في نوفمبر 1922، وقد بلغ غضب الطليان أشده من هذه الخطوة لتوحيد البلاد.

أما إدريس السنوسي فقد وافق على البيعة برسالة أرسلها إلى هيئة الإصلاح المركزية يشكرهم فيها على ذلك، وسعيهم لتوحيد الوطن وأعلن أنه يتحمّل المسؤولية العظمى (على حد قوله). وغادر البلاد إلى مصر في 21 ديسمبر 1922 وبرفقته عبد الرحمٰن عزام وبوصول الحزب الفاشستي إلى الحكم في روما استؤنفت المعارك في جميع تراب الوطن.

وحمل بشير السعداوي إلى السيد الرضا السنوسي نائب الأمير على برقة رسالة إعلان الحرب التي أقرَّها المجتمعون في غريان من هيئة

الإصلاح المركزية، فلم يوافق عليها بالرغم من كل الحجج التي أوردها له بشير السعداوي من الكتاب والسنة.

وفي 9 مارس 1923 غادر بشير السعداوي أجدابية متوجهاً إلى طرابلس وبرفقته صفي الدين السنوسي وأحمد سيف النصر وعمر سيف النصر، وقد كانت مصراتة قد سقطت في أيدي الطليان وارتحل أهاليها إلى (السدادة) حيث شكلوا حكومة هناك.

ولما وصل بشير ورفاقه إلى سرت التقوا بمجموعات المجاهدين المهاجرين الذين سقطت بلدانهم تحت يد الاستعمار الإيطالي فقرر المجتمعون أن يتولى بشير السعداوي أمر قائمقامية سرت ويتولى تجميع المجاهدين فيها.

لقد سقط الجبل الغربي إلى غريان وسقطت ترهونة ومسلاتة ومصراتة في بداية عام 1923 وسقطت بني وليد أواخر 1923 وتجمع المنسحبون من هذه المناطق في سرت.

حاول بشير أن يؤسس جبهة في سرت، ولكن نقص المواد الغذائية والذخيرة والسلاح حال دون ذلك الأمر الذي جعله يبيع سلاحه وجواده من أجل توفير الغذاء له ولرفاقه.

وفي سبتمبر 1923 غادر البشير سرت متوجهاً إلى جالو والجغبوب ومنها دخل إلى (سيوة) في الأراضي المصرية في قافلة من الإبل قطعت الصحراء المعطشة الحارقة وفي سيوة وجد اسمه ضمن مجموعة من الأسماء الممنوعة من دخول مصر، ولكن وساطة الشيخ أحمد ظافر المدني وهو من العلماء الليبيين والذين لهم نفوذ في سيوة

ساعده في الدخول إلى مصر حيث وصل الإسكندرية أمام حراسة مشددة من المصريين نتيجة لضغط الطليان عليهم.

بقي بشير في الإسكندرية قرابة الشهر في عام 1924 ثم غادرها بعد حصوله على وثيقة سفر إلى بيروت التي سبقه إليها أخوه نوري السعداوي ومنذ وصوله شرع في الاتصال بقيادات الجهاد الليبي الذين وصلوا إلى مصر وإلى تونس محاولاً تكوين جبهة موحدة مهمتها الدفاع عن البلد إعلامياً وسياسياً.

غير أن معرفته بكبار رجال الشام الذين شرعوا في خوض المعارك الجهادية ضد الفرنسيين لم تتركه متفرغاً لقضية وطنه بالرغم من أن بشير السعداوي يرى أن كل بلاد العرب والمسلمين وطنه ولم ينس الإيطاليون لبشير السعداوي جهاده ضدهم فأصدروا عليه حكماً بالإعدام وصادروا أملاكه بالخمس ومصراتة.

وقد بدأ نوري السعداوي العمل كموظف محاسب مالية في بعلبك عندما اشتعلت الثورة السورية ضد الفرنسيين، فأرسل إلى أخيه بشير يدعوه للانضمام إلى الثورة. آثر بشير الحكمة والتروي فهو مهاجر من بلده ومحكوم عليه بالإعدام فيها إذا ما طرد من الشام إلى أين يلتجيء.

عرف بشير السعداوي الدكتور رجب فردي وهو طرابلسي ووالدته من الجزائر، وهذا على علاقة بالداماد أحمد نامي بك، الذي عينته فرنسا رئيساً للوزراء في دمشق والذي طلب من بشير السعداوي مرافقته كمستشار له، وقد تمنع بشير بذريعة أن في الشام آلاف الرجال الذين من

المفروض أن يخدموا بلدهم ويكونوا معاونين ومستشارين، وبشير كما يرى نفسه غريباً عن البلد، ولهذا قد لا يجد الرضى من الشاميين وأمام إصرار الداماد وافق على الذهاب معه كمستشار، حاول بقدر المستطاع أن يقدم الشورى والنصح الذي تفرضه المرحلة وليتبوأ المواطنون السوريون مكانهم من حكم وطنهم.

واتصل الإيطاليون ببشير عارضين عليه الصلح وأن يتصل بمواطنيه للمصالحة، إذ إن الجهاد في ليبيا لا يزال مستمرًّا في فزان والصحراء الجنوبية والجبل الأخضر.

وحاول بشير الاتصال بقيادات المجاهدين في مصر للتنسيق فيما بينهم وإصدار رأي مشترك وخاصة مع أحمد المريض وإدريس السنوسي والشيخ عبد الرحمٰن الزقلعي، ومن خلال الرسائل كان الرأي متفقاً فيما بينهم من حيث إنشاء الحكومة الوطنية والاعتراف بالإمارة السنوسية، ولو أن فريقاً من المهاجرين في مصر يناوئون الإمارة السنوسية منهم عون بن سوف والطاهر المريض وغيرهم.

وكانت إيطاليا تفاوض في نفس الوقت الأمير إدريس السنوسي في مصر، وقد تبين أن غرض الطليان من هذه المفاوضات والاتصالات هو إنهاء حركة المقاومة في ليبيا وبسط سيادتها عليها، إذ بدأت حركة الجهاد تنمو باضطراد بقيادة المجاهد عمر المختار.

ولم تعمر استشاريته للداماد أحمد نامي الذي استقال أو أقيل بعد عامين من توليه رئاسة الحكومة وحصول اضطرابات وقلاقل داخل بلاد الشام، وولى الفرنسيون حاكماً مدنياً لدمشق بعد قصفها بالمدافع

وتهديم دورها، الأمر الذي خلّف امتعاضاً شديداً من الوطنيين والعرب والمسلمين، وكان بشير دائماً يدعو صاحبه إلى الاستقالة ليفسح المجال أمام المواطنين أن يتولوا مهام حكم بلدهم.

وحاولت مجموعة من السوريين تشكيل حزب لدعم الداماد أحمد نامي واستمالوا إليهم بشير السعداوي، الذي وقع معهم على وثيقة تأسيس الحزب، ولكنه عرف أن الفرنسيين من وراء هذه الفكرة، فأسرع إلى الانسحاب من الحزب وشطب اسمه من القائمة، كما حاول الأمير خالد الجزائري وهو ضابط بالجيش التركي ومن أحفاد الأمير عبد القادر الجزائري أن يقوم بانقلاب ضد الفرنسيين ويتولى الحكم في الشام ولكن بشير السعداوي حال دون ذلك، لأن مثل هذه الفكرة ستجعل الفرنسيين يقومون بمذبحة في الشام وليس لدى الأمير خالد إمكانيات مادية وذخائر وأسلحة لاستمرار الثورة، فنصحه بصرف النظر عن هذه الفكرة بعد أن جاء يستشيره قبل تنفيذها، كما أنه علم من الأمير خالد في حالة نجاح الفكرة عدم تسليم السلطة للشعب، وهنا عارض بشير الفكرة، لأن الأمير خالد كما قال له: سيصبح بين فكي الرحى أهالي البلد الذين يقاتلون من أجل حريّتهم واستقلال بلادهم، والفرنسيين الذين لن يخرجوا بالسهولة المطلوبة. ولما ألحّ الأمير خالد على بشير بتطبيق فكرته، طلب منه بشير أن يذهبا معاً إلى شمال أفريقيا للجهاد ضد إيطاليا في ليبيا وفرنسا في الجزائر وانتهت فكرة الأمير خالد.

وكان بشير يعقد الاجتماعات مع الوطنيين السوريين ويمدهم بالآراء بناء على تجاربه الطويلة في مقارعة الاستعمار.

أجبر الداماد أحمد نامي على الاستقالة يوم 8 فبراير 1928 وكلَّف الفرنسيون الشيخ تاج الدِّين الحسني بتشكيل الوزارة يوم 12 فبراير 1928 وهو من أصل مغربي، فانصرف بشير السعداوي إلى القضية الرئيسية (ليبيا) وأسس لجنة (اللجنة التنفيذية للدفاع عن طرابلس وبرقة) مع استمراره بالاتصال برجال الحركة الوطنية في سوريا (الكتلة الوطنية) ولم يكن بشير على علاقة مرضية برئيس الوزراء تاج الدين الذي كان يميل إلى جانب الفرنسيين وقد انتهت حكومة الشيخ تاج الدين في نوفمبر 1931، وأعاده الفرنسيون لتشكيل الحكومة في 16 مارس 1934 ولكنها سقطت أمام معارضة الشعب وإعلان الإضراب في سوريا الذي استمر ستين يوماً 1936 واستمرت الاضطرابات في سوريا إلى أن تم إعلان استقلالها.

وقد كان بشير السعداوي على علاقة بالوطنيين يؤثِّر ويتأثر بالأحداث ويقول الأستاذ الدكتور محمد فؤاد شكري:

«بلى، لقد ساهم بشير السعداوي نفسه في قدر ملحوظ من هذه الأحداث بفضل صلته بالوطنيين الذين تشاوروا معه ووثقوا به واعتمدوا عليه في مهمات كثيرة، سواء لتنقية الجو الداخلي من الشوائب التي قد تحدث عند استفحالها الفرقة في الصفوف، أو لتأييد حكومة الوطنيين ذاتها في المسائل القومية أو القضايا العربية العامة التي قد تعرّض لها أو تصدّى لمعالجتها. .»[1].

وقد بقي بشير السعداوي بدمشق من سنة 1924 إلى 1938 وهي

---

(1) ليبيا الحديثة، المصدر السابق، الجزء الأول، ص 640.

السنة التي التحق فيها بخدمة الملك عبد العزيز بن سعود ملك المملكة العربية السعودية.

اللجنة التنفيذية للدفاع عن طرابلس - برقة

استطاع بشير السعداوي في عام 1928 تأسيس لجنة للدفاع عن وطنه ليبيا بمساعدة مجموعة من قيادات الجهاد الليبي المهاجرين في الشام ومصر وتونس، وقد ضمَّت هذه اللجنة إلى جانب رئاسة بشير السعداوي كلاً من فوزي النعاس وعبد الغني الباجقني والدكتور كامل عياد، ثم انضم إليهم المرحوم عمر فائق شنيب سكرتير اللجنة، وأعدت اللجنة ميثاقاً وطنياً في أوائل عام 1929 وأرسلته إلى المواطنين الليبيين المهاجرين في الخارج وكان هذا الميثاق يتضمن ثمانية بنود تسعى إلى استقلال البلاد، وقد حاولت إيطاليا الاتصال ببشير السعداوي وفوضت قنصلها في بيروت للتباحث معه في أمر هذا الميثاق، ولكن بشير فهم أن هذه اللقاءات الغرض منها إضاعة الوقت أو محاولة استمالته للقبض عليه، فقطع المفاوضات ونشرت هذه اللجنة مجموعة من الكتيبات تفضح فيها أعمال الطليان الشنيعة في ليبيا وجرائمهم، حيث نصبوا المشانق للأحرار في كل مكان واعتقلوا العائلات في معتقلات في العقيلة وغيرها، وتم تشريد آلاف الليبيين إلى الصحارى القاحلة والبلدان المجاورة.

ولقد كثف بشير اتصالاته برجال الدِّين والشرفاء في كل أنحاء العالم العربي والإسلامي، ووزع المناشير والكتيبات ضد إيطاليا موضحاً فيها جرائمها في طرابلس الغرب، الأمر الذي جعل المواطنين في الشام

يتجاوبون معه ويقومون بالمظاهرات والإضرابات تأييداً للشعب الليبي، وكان بشير السعداوي يخطب في المظاهرات ويتصدرها ولا يأبه بتهديد الفرنسيين له.

كما أرسل استغاثة للعالم الإسلامي ساعده في كتابتها مفتي الموصل الأستاذ حبيب العبيدي، وقد طالبت هذه الاستغاثة بمقاطعة إيطاليا، ولم تمضِ فترة قصيرة حتى قامت المظاهرات في بلاد الشام وتشكلت لجان لمناصرة الشعب الليبي وكان من رؤسائها صاحب السماحة رئيس المجلس الأعلى بالقدس ومفتي بيروت ومفتي اللاذقية بلبنان والشام وعطوفة رئيس اللجنة التنفيذية بالقدس الذين راسلهم بشير شاكراً لهم ذلك بتاريخ 27 مايو 1937.

وقد أقام بشير السعداوي حفل تأبين لاستشهاد المجاهد الكبير عمر المختار الذي أعدمه الإيطاليون شنقاً في قرية (سلوق) يوم 16 سبتمبر 1931، كما نشر كتاباً بعنوان (الفظائع السود الحمر). وقد وقف الأمير شكيب أرسلان موقفاً يحمده له التاريخ من القضية الليبية ومن نشر فظائع الإيطاليين في العالم وهو على اتصال مستمر ببشير السعداوي.

المؤتمر الإسلامي بالقدس 1931

كان بشير السعداوي من أوائل المطالبين بانعقاد المؤتمر الإسلامي لمناقشة أوضاع المسلمين والتصدي للحملات الصليبية التي تشنها أوروبا المستعمرة ضد المسلمين، وقد ناقش بشير فكرة انعقاد المؤتمر مع الأمير شكيب أرسلان وقد كان لمفتي القدس سماحة الشيخ أمين الحسيني اليد الطولى في تنظيم هذا المؤتمر.

وقد تقرر انعقاد المؤتمر ليلة الإسراء المباركة في 27 رجب 1350 الموافق 8 ديسمبر 1931.

وقد حضر بشير السعداوي المؤتمر وقدم تقريراً عن القضية الطرابلسية البرقاوية، وقد كانت قضية ليبيا من اهتمامات المؤتمر واختار المؤتمر بشير السعداوي عضواً في اللجنة التنفيذية كما صار عضواً بلجنة الدعاية والإرشاد، ثم عيّنه المؤتمر مفتشاً لنشر فكرة المؤتمر في سوريا ولبنان.

كما انتهز بشير السعداوي فرصة وجود مجموعة كبيرة من مثقفي العرب وقياداتهم، فاجتمع معهم واستطاعوا أن يوفقوا لاستصدار بيان عرف باسم (بيان إلى العالم العربي) يطالب العرب بوحدتهم وجمع شملهم وتضامنهم، وقد وقع على البيان مجموعة كبيرة من زعماء العرب من مختلف مناطقهم شكري القوتلي من سوريا، خيري الزركلي (دمشق)، رياض الصلح (بيروت)، حسين الطراونة (الكرك)، محمد طارق (طرابلس الغرب)، محمد بنونة (تطوان ـ المغرب)، سعيد ثابت (بغداد)، بشير السعداوي (طرابلس الغرب)، عبد الرحمن عزام (مصر)، محمد سعيد عبد القادر الجزائري (الجزائر) وغيرهم الكثيرون[1].

غير أن هذا المؤتمر لم يثمر عن نتيجة بسبب العراقيل التي وضعت في طريقه وعدم اجتماع مؤسسيه مرة أخرى وبقي بشير السعداوي ملحاً يستنهض هممهم بالرسائل والاتصالات.

---

(1) انظر التفاصيل في كتاب ليبيا الحديثة، المصدر نفسه، ص 805 ـ 806.

وتشكّلت في هذه الأثناء لجنة فرعية بتونس للدفاع الطرابلسي البرقاوي، واختير لرئاستها السيد محمد شكري الطرابلسي وعضوية مجموعة كبيرة من المهاجرين الليبيين منهم أحمد زارم ومحمد عباس والشيخ محمد الرحيبي والشيخ ميلاد جربي والشيخ الحاج محمد البوعيسى والشيخ محمد بن سليمان والسيد محمد اتريفيش والشيخ محمد الزنتاني وجميعهم على اتصال ببشير السعداوي.

الحرب اليمنية السعودية

استطاع الملك عبد العزيز بن سعود أن يسقط الإمارات الصغيرة في الجزيرة العربية في خطوة جريئة لتوحيد شبه الجزيرة العربية، وقد خرج الشريف حسين وأولاده منها بعد مصادمات معهم، وتشكَّلت الحدود للمملكة الفتية مع الكويت والعراق والأردن غير أن الحدود مع اليمن لم تتشكل لوجود إمارة الأدارسة التي تذبذب ولاؤها بين اليمن والسعودية.

وتقدَّمت القوات السعودية لتحتل جيزان والحديدة وقرر المؤتمرون في المؤتمر الإسلامي إرسال وفد إلى الطرفين لحقن دماء المسلمين.

كان الوفد يتكوّن من بشير السعداوي الذي أرسل من قبل الحاج أمين الحسيني إلى مكة ليقترح على الملك عبد العزيز بن سعود فكرة الوساطة.

وصل بشير إلى مكة واجتمع بالعاهل السعودي وحضر الحج معه ذلك العام مارس/أبريل 1934 وحضر المأدبة السنوية التي يقيمها الملك عبد العزيز بمكة المكرمة لكبار وفود الحجاج.

واستمع بشير إلى خطاب الملك الذي عدد فيه الأسباب لنشوب الحرب بينه وبين إمام اليمن يحيى.

وقد بذل بشير السعداوي جهداً في إقناع الملك عبد العزيز بقبول الوساطة، وكان مستشارو الملك عبد العزيز يرون في الحرب فرصة لتوسيع الدولة الجديدة.

وفي 3 أبريل 1934 أبرق الملك عبد العزيز إلى سماحة رئيس المؤتمر الإسلامي الحاج أمين الحسيني بالقدس موضحاً له أنه يقبل الصلح و«يرغب في السلم من صميم قلبه ما دام هنالك دليل للمحافظة على العهود وصيانة الشرف».

وفي 28 ذي الحجة 1352 الموافق 12 أبريل 1934 أبرق مكتب المؤتمر الإسلامي العام بالقدس إلى ديوان جلالة الملك عبد العزيز آل سعود في مكة وجلالة الإمام يحيى في صنعاء: «تيمناً بالرغبة التي أبديتموها بالسلام يتوجه وفد المؤتمر الإسلامي العام اليوم إلى مكة مؤلفاً من سماحة رئيس المؤتمر الإسلامي ومحمد علي علوبة باشا وكيل المؤتمر والأمير شكيب أرسلان ورئيس الكتلة الوطنية بسوريا هاشم بك الأتاسي، وتوجَّهت معه قلوب المسلمين لاجئة لله بطلب التوفيق مؤملة بجلالتي العاهلين خير الأمل».

وصل وفد المؤتمر إلى جدة يوم 2 محرم 1353 الموافق 17 أبريل 1934 ودارت المباحثات في مكَّة والطائف، وكان بشير السعداوي ضمن الوفد حيث التحق به من مكة.

اجتمع الطرفان في الطائف وكان رئيس الوفد اليمني عبد الله بن

الوزير والوفد السعودي برئاسة الأمير خالد بن عبد العزيز وفي 6 صفر 1353 الموافق 19 مايو 1934 وقع العاهلان على المعاهدة، إذ تم التوقيع عليها من قبل الأمير خالد بن عبد العزيز نيابة عن والده وعبد الله بن الوزير نيابة عن الإمام يحيى وأنهت هذه المعاهدة الحرب القائمة بين السعودية واليمن وكان لبشير دور مميز في هذه المفاوضات.

ويقول بشير السعداوي: «يرجع الفضل في إنهاء هذه الحرب إلى جلالة الملك عبد العزيز نفسه، الذي كان له من نقاء البصيرة وقوة الملاحظة السياسية ما جعله يرى عبث الاستمرار في الخصومة مع الإمام يحيى بسبب العسير وتهامة، وخالف الرأي الذي كان سائداً بين أكثرية مستشاريه والمحيطين به وقتئذٍ من حيث وجوب انتهاز الفرصة لتوسيع حدود المملكة السعودية الجديدة، فآثر أن تقوم بينه وبين اليمن صلات المودة وحسن الجوار..»[1].

العمل على إقامة الوحدة العربية

كان بشير السعداوي يعمل جاهداً على تكتل العرب والمسلمين بكل الطرق وبكل ما يستطيع وكان الحاج أمين الحسيني رجلاً غيوراً على العرب والمسلمين وجد فيه بشير السعداوي ضالته المنشودة فكونا معاً ثنائياً عاملاً جاهداً لرفعة العرب والمسلمين، كما كان السيد رياض الصلح وهو على ما هو عليه من الغيرة الوطنية والإسلامية ما يجعله يكون ثالث الرجلين في مسعاهم هذا.

وكانت الأمة العربية جمعاء تحت نير الاستعمار، فبلدان شمال

---

(1) فؤاد شكري: المصدر السابق، ص 889.

أفريقيا تستعمرها فرنسا وإيطاليا وبريطانيا، وسوريا لا تزال تحت الانتداب الفرنسي، والإنجليز يحتلون فلسطين وشرق الأردن والعراق، فاتجهت أنظار هذه المجموعة من الرجال إلى المملكة العربية السعودية لعرض المشروع على الملك عبد العزيز بن سعود فقصدوا الحجاز في موسم حج عام 1355 في غضون شهري فبراير ومارس 1937، وبعد الحج عرضوا على العاهل السعودي مشروعهم وطلبوا منه تأسيس لجنة تدعو إلى الوحدة العربية وبعد أن عرضوا رأيهم عليه، أوضح لهم «أنه يجب أن يسعوا في جمع كلمة الشعوب العربية ذاتها وليس ملوكها وأمراءها، لأن هؤلاء الملوك والأمراء قد يكون هناك من الدواعي السياسية ما يقعدهم عن العمل، وما لا يدعو إلى رجاء الخير منهم ولكن الشعوب إذا تيقظت لأمانيها وتنبهت لمزايا الوحدة المنشودة، فإنها لا تلبث أن ترغم ملوكها وأمراءها على تحقيق الوحدة، ونصح الملك ببذل هؤلاء الثلاثة جهدهم لاستمالة رجالات العرب وأهل الرأي منهم في سائر الأقطار العربية لتأييد مشروع الوحدة، وأشار باختيار القطر المصري ميداناً لهذا العمل، وبغير هذا المسعى مع الشعوب ذاتها لن يرجى نجاح لهذه الفكرة»[1].

واقترح الثلاثة أن يذهب بشير السعداوي إلى مصر لمقابلة رئيس وزرائها مصطفى النحاس، وذلك لمساعدة العرب على عقد المؤتمر المطلوب في القطر المصري، وحمل بشير السعداوي رسالة من رئيس وزراء سوريا جميل مردم إلى رئيس وزراء مصر مصطفى النحاس في هذه المسألة.

---

(1) ليبيا الحديثة، المصدر نفسه، ص 988.

حاول بشير مقابلة النحاس ولكنه لم يتمكن بالرغم من أنه حاول أن يتوسط له عمر طوسون الذي كان ضد الفكرة أصلاً، وعلم بشير أن الأمير سعود بن عبد العزيز قادم من لندن حيث حضر حفلات تتويج الملك جورج السادس في 12 مايو 1937.

وصل الأمير سعود إلى مدينة السويس يوم 28 يوليو 1937 وانطلق بشير برفقة اثنين من أصحابه في سيارة لمقابلته، ولكن حادثاً مرورياً وقع للجماعة أدى إلى دخول بشير إلى المستشفى بعد إصابته بجروح وبقي بالمستشفى قرابة الثلاثة أشهر، أما خطاب جميل مردم فلقد حمله حمد باشا الباسل[1] إلى النحاس.

لم يستطع العرب عقد مؤتمرهم في مصر، بل عقدوه في منطقة (بلودان بسوريا) يوم 8 سبتمبر 1938، وأصدر المؤتمر قرارات منه: اعتبار فلسطين جزءاً من الوطن العربي وأن العرب سوف يناضلون من أجل استقلالها وكان اليهود قد سبقوهم إلى عقد مؤتمرهم في (زيوريخ في أغسطس 1937) ورفضوا تقرير (بيل).

في مهمة إلى السعودية

قرر الوطنيون في سوريا التشاور مع العرب في وضع العرب إذا ما قامت حرب عالمية كالتي سبقت، خاصة وأن نذورها قد بدأت في الأفق بعد أن ضمت ألمانيا الهتلرية، النمسا وتأهبت لاجتياح تشيكوسلوفاكيا.

(1) أحمد باشا الباسل: من أصل ليبي من قبيلة (الفوايد) كان له دور كبير في استقبال المجاهدين المهاجرين وتخفيف آلامهم هو وأخوه عبد الستار.

وصل السعداوي إلى الملك عبد العزيز طالباً منه المشورة في ما يمكن أن يفعله العرب حتى يتسنى للأمة العربية دخول الحرب ومواجهتها مجتمعين، ويقول الدكتور شكري عن هذه المقابلة:

«وقد تلقى الملك مقصد التضامن بين العرب بقبول حسن طيب وزود السعداوي بالنصائح والإرشادات لإخوانه في سوريا، فجلالته على أتم الاستعداد لهذه الغاية التي يسعى إليها هؤلاء وأنه مهتم جد الاهتمام دائماً بسوريا لأنه يعتبرها ـ كما قال جلالته ـ المركز الحساس في جسم الأمة العربية».

السعداوي مستشاراً للملك عبد العزيز

يقول بشير السعداوي: إنه بعد فراغه من هذه المهمة طلب منه الملك عبد العزيز أن يبقى معه مستشاراً، وذلك عن طريق أبو الوليد خالد القرقني الذي كان مستشاراً للملك عبد العزيز، أخبر بشير زميله خالد في أنه لا يستطيع لأنه الآن يشرف على (المكتب العربي) وعلى (لجنة الدفاع الطرابلسي البرقاوي) ولم يستطع أبو الوليد حمل هذا الجواب للملك عبد العزيز الذي انتهز فرصة وجود بشير السعداوي معه في مجلسه أن يفاتحه في الموضوع وكان رد بشير: «إنه شرف عظيم لي ولكنني موفد من قبل إخواني في مهمة يجب علي أن أبلغهم أوامر جلالة الملك بشأنها».

فقال الملك: «لا بأس بذلك حينئذٍ تذهب إلى إخوانك في سوريا ثم تعود إلينا عند موسم الحج فنتقابل، وكنا حينئذٍ في شهر رمضان 1357 وفي أواخر أكتوبر 1938، وبالفعل عدت إلى سوريا وأبلغت

الإخوان رسالة جلالة الملك وقبل الحج رجعت إلى الحجاز في أواخر شهر ذي القعدة يناير 1939 وحضر جلالته إلى الحجاز، وبعد الحج باشرت عملي كمستشار جلالته وتوجهت صحبته إلى الرياض في فبراير 1939»[1].

بشير السعداوي في السعودية

أصبح بشير السعداوي مستشاراً لدى الملك عبد العزيز آل سعود ذلك الرجل الذي فتح بلاده لمثقفي العرب والمسلمين واتخذ منهم مستشارين وأطباء وأساتذة ساعدوه في بناء دولته الفتية التي تشكلت في وقت كان فيه التعليم ترفاً لا ترقى إليه طموحات القبائل البدوية في بلاد العرب.

وكانت أول مهام السعداوي التي يتذكرها وكلّفه بها صاحب الجلالة الملك عبد العزيز هي إرساله إلى سوريا، ذلك البلد الذي عاش فيه بشير جزءاً من سنوات عمره وكافح فيه مع الوطنيين الشاميين ضد الاستعمار الفرنسي، فلقد راوغ الفرنسيون في إعطاء البلاد استقلالها مما اضطر رئيس الوزراء جميل مردم إلى الاستقالة في 18 فبراير 1939 واستقالت وزارتان بعد وزارته، الأمر الذي جعل رئيس الجمهورية السيد هاشم الأتاسي يقدم استقالته هو الآخر في 7 يوليو وقرر المندوب الفرنسي حل البرلمان وباشر إدارة البلاد دون الاستعانة بأحد من الوطنيين.

هنا قرر الملك عبد العزيز إرسال مستشاره إلى الوطنيين السوريين

---

(1) فؤاد شكري: المصدر السابق، ص 1011.

«ليثبت قلوبهم ولينصحهم بالتمسك بالحكمة وليؤكد تأييده لهم في السعي من أجل استقلال بلادهم»[1].

وصل بشير إلى دمشق وشرع في اللقاء مع أعضاء الكتلة الوطنية لتشجيعهم ونقل حديث الملك عبد العزيز إليهم، وهو لا يزال في دمشق اندلعت الحرب العالمية الثانية فاضطر إلى العودة عن طريق العراق، حيث وجد الحاج أمين الحسيني الذي نفته الإدارة البريطانية إلى العراق، وكذلك السيدين جمال الحسيني وصفوت الحسيني اللذين رافقاه إلى الرياض.

وفي عام 1940 وصل إلى مكة المكرمة لأداء فريضة الحج في ذي الحجة 1358 هجري سيف الإسلام حسين نجل الإمام يحيـى حميد الدين إمام اليمن، وهذا ما يدل على حسن النوايا لإمام اليمن تجاه أخيه الملك عبد العزيز الذي رأى أن يرسل وفداً إلى اليمن لزيارة الإمام يحيـى ويحمل رسالة من الملك عبد العزيز، تألَّف الوفد من سموّ الأمير محمد بن عبد العزيز وبشير السعداوي ورافقهما طاهر رضوان.

استمرَّت الرحلة بالسيارات اثني عشر يوماً من الرياض إلى جدة إلى الحديدة إلى صنعاء، وكانت الطريق غير ممهدة والسيارات غير مريحة، سلَّم بشير الرسالة لإمام اليمن الذي قبلها بترحاب كبير، وبقي الوفد بصنعاء قرابة الخمسة وعشرين يوماً تحدث السعداوي فيها مع مضيفه عن الكثير من القضايا وعن العلاقات اليمنية السعودية وعن الوحدة العربية، وقد لاحظ السعداوي رغبة الإمام في إقامة علاقات

---

(1) فؤاد شكري: المصدر السابق، ص 1012.

ودية مع الملك عبد العزيز، ولكنه كان غير مرتاح لقضية الوحدة العربية ولا يثق في الرؤساء العرب.

وحمل بشير رسالة من الإمام إلى الملك عبد العزيز، وشرع الوفد في العودة إلا أن السيارات تعطل أكثرها بسبب وعورة الطريق واقترح الإمام يحيى أن يعود الوفد في باخرة إيطالية كانت راسية بالقرب من الحديدة، بحيث تحمله إلى جدة.

رفض بشير هذا العرض، لأن الإيطاليين سبق لهم وأن أصدروا حكماً عليه بالإعدام، وهو يخشى أن يتم القبض عليه داخل السفينة، فاعتذر الملك عبد العزيز للإمام وأرسل إلى وفده باخرة قادمة من الهند أوصلته إلى جدة، وقد اقترح الإمام يحيى على بشير أن يخاطب موسوليني في إصدار العفو عنه ـ وذلك بعدما سمع بحكم الإعدام ـ غير أن بشير السعداوي رفض ذلك بشدة قائلاً: إن حكماً من هذا الطاغية يعتبر وساماً على صدري وشرفاً عظيماً لي، لأنه من طاغية يستعبد وطني الذي أنا مستعد للتضحية بحياتي دائماً في سبيله.

وصل الوفد إلى الرياض وقدم بشير إلى الملك عبد العزيز الرسالة وحدثه ما رأى عن الإمام يحيى وعن نواياه الطيِّبة تجاه الملك والمملكة.

وقد كان العالم كلّه منشغلاً بأحداث الحرب العالمية الثانية، وكان مستشارو الملك عبد العزيز منهمكين في تتبع أخبارها وتقديم التقارير عنها إلى الملك يومياً، وقد رفض الملك عبد العزيز دخول الحرب عندما طلب منه الإنجليز ذلك، وبذلك جنب بلاده ويلاتها ودمارها وهو بذلك برهن على حكمته وبعد نظره.

وعندما وقع الانقلاب في العراق وقام به رشيد عالي الكيلاني في أبريل 1941 وهاجمه الإنجليز ولم تستطع ألمانيا ولا تركيا دعمه بالأسلحة والذخائر، فسقط وخرج من بغداد مختبئاً وضاقت به السبل وقرر اللجوء إلى الملك عبد العزيز الذي كان لا يقره على هذا الانقلاب ولا يتفق معه على المبادىء التي يطرحها، أبرق أمير الحدود مع شرق الأردن أن نجيب الجابي المحامي من دمشق يريد اجتياز الحدود السورية السعودية يطلب مقابلة الملك عبد العزيز.

سمح للرجل باجتياز الحدود، ولما وصل إلى الرياض قدم للملك عبد العزيز رشيد عالي الكيلاني الذي يطلب اللجوء السياسي، أمر الملك أن يقيم في ضيافته وقال بشير: «أخبرني الملك أن ضيفنا هو رشيد عالي الكيلاني، وقال: إن التجائه إلينا سيسبب لنا المشاكل مع العراق ومع الإنجليز، ولكني لا أسلم هذا الشخص وأنا على قيد الحياة، لأنه ضيفي».

واستدعى الوزير المفوض الإنجليزي وأخبره قائلاً:

«إن رشيد عالي قد جاء ملتجئاً إلينا، إني إنما أستدعيك حالاً لتبلِّغ حكومتك أن هذا الرجل ضيفي، ولتعلمها أني لا أسلم ضيفي وأنا على قيد الحياة». وكان انفعال الملك شديداً وهو يتحدث فاندهش الوزير البريطاني وقال: إنه سيرفع إلى حكومته ما سمعه من جلالته، وأمام إصرار الملك رأت الحكومة البريطانية أن تسلم بالأمر الواقع، وتركت المسألة للعراقيين ليحلها هؤلاء مع الملك عبد العزيز، فكتب الملك عبد العزيز إلى الوصي على عرش العراق عبد الإله أن رشيد الكيلاني ضيفه وأنه مضطر إلى قبوله وأن الوصي على العراق نفسه عربي

ويعرف «الدخالة» لذلك فهو يرجو أن لا يتلقى هذه المسألة بشيء من الحرج والاضطراب، فكان جواب عبد الإله رقيقاً، غير أن نوري السعيد طلب من الخارجية السعودية تسليمه، ولكن السعداوي أبلغ الملك عبد العزيز أن المعاهدة بين السعودية والعراق لا تخول تسليم اللاجئين السياسيين.

وانتهى الأمر بسكوت العراق، وبقاء رشيد عالي ضيفاً على الملك عبد العزيز دون أن يمسه أحد بسوء وتلك هي النخوة العربية والشهامة العربية.

كما كلف الملك عبد العزيز مستشاره السعداوي بإجراء مباحثات مع مصطفى النحاس رئيس وزراء مصر بخصوص إنشاء الجامعة العربية التي تم اتفاق في شأنها بين الرئيس المصري ورئيس الوزراء العراقي، وبطلب الرئيس المصري انضمام السعودية لهذا الاتفاق.

وقد كان إنشاء الجامعة العربية حلماً من أحلام بشير السعداوي والذي عمل من أجله ومن أجل جمع شمل العرب كثيراً، ولعل إنشاء (المكتب العربي) خير دليل على ذلك. وقد اجتمع لهذه الغاية كلٌّ من نوري السعيد رئيس وزراء العراق ومصطفى النحاس رئيس وزراء مصر بالقاهرة بين 31 يوليه و5 أغسطس 1943 حيث أعلنوا أن الاتفاق قد تم بين مصر والعراق وشرق الأردن وأن مندوباً مصرياً قد ذهب لمقابلة الملك عبد العزيز، وتنقلت الوفود بين سوريا والعراق ولبنان ومصر والسعودية وقد اجتمع المؤتمر التمهيدي للدول العربية بالإسكندرية برئاسة مصطفى النحاس بين 25 سبتمبر و10 أكتوبر 1944 ووقعت

خمس دول (على بروتوكول الإسكندرية) في 7 أكتوبر 1944 هي مصر وسوريا وشرق الأردن والعراق ولبنان، وكان مفهوماً أن اليمن والمملكة العربية السعودية توافقان على البروتوكول، وقد استغرقت بقية سنة 1944 في التشاور.

وزار الملك فاروق السعودية حيث اجتمع مع الملك عبد العزيز في (رضوى) وصدر بيان يؤكد على جمع العرب، وإعادة العلاقات المصرية السعودية إلى الأحسن بعد الفتور الطويل بسبب غزو إبراهيم باشا للدرعية وتحطيم أسوارها وتشريد أسرة آل سعود من المنطقة ونفي بعضهم بمصر وتركيا.

وقد رافق بشير السعداوي الملك عبد العزيز عند مقابلته للرئيس الأمريكي روزفلت في البحيرات المرة بمصر، ويقول بشير الذي حضر المقابلة: «إن جلالة الملك عبد العزيز تكلم مع الرئيس روزفلت كلاماً شديداً جدًّا بشأن فلسطين وفي اعتقادي ـ كما استمر بشير يقول ـ لو عاش روزفلت لما كانت تمت قصة اليهود بالشكل الذي هي عليه اليوم، ومن ضمن ما قال روزفلت لجلالة ابن سعود: أنت بلادك زراعية وإني أرغب أكيداً في زيارتك في الرياض وأساعدك على توسيع الزراعة في نجد»، فأجاب جلالة ابن سعود: «أنا لا أريد زراعة بل، ولا أريد الحياة ذاتها إذا استمر اليهود في فلسطين وقد صدم روزفلت بهذا الجواب. . ».

وانتقل الملك عبد العزيز إلى الفيوم لمقابلة تشرشل رئيس الوزراء البريطاني، وكان الذي يقوم بالترجمة السيد عبد الله بالخير، ويقول بشير: «إن البحث كله يدور حول قضية فلسطين ويبذل جلالة الملك

عبد العزيز قصارى جهده ليبين لهم أن فلسطين عربية، وأنه لا يجب أن ينتصروا لليهود على العرب، لأن العرب يعتبرون هذا الانتصار لليهود عملاً عدائياً ضد العرب..» وقد حضر لهذه الاجتماعات شكري القوتلي والملك فاروق.

انتهاء الحرب العالمية الثانية

استطاع الحلفاء أن يكسبوا الحرب وقتل موسوليني شنقاً ومعه عشيقته وستة عشر من حزبه يوم 28 أبريل 1945 وفي أول يوم من مايو ينتحر أدولف هتلر وتسقط ألمانيا وفي يوم 8 مايو 1945 احتفلت الولايات المتحدة بالنصر في أوروبا.

أما اليابان فلم تستسلم إلا بعد سقوط قنبلتين ذريتين على هيروشيما في 6 أغسطس وناجازاكي يوم 9 أغسطس 1945 وفي يوم 2 سبتمبر وقَّع رئيس وزرائها وكبار عسكريِّيها على شروط التسليم، وأصبحت أملاك الدول المهزومة بيد الدول المنتصرة بما فيها المستعمرات.

وأصبحت ليبيا تحت الإدارة الإنجليزية في الشمال والإدارة الفرنسية في الجنوب، ولم يغب بشير السعداوي على أحداث وطنه بالرغم من انشغاله في العمل مع الملك عبد العزيز، فلجنة الدفاع الطرابلسي البرقاوي أصبح رئيساً لها الدكتور كامل عياد وبقي من أعضائها القدامى السيد عبد الغني الباجقني واتفق الأمير إدريس السنوسي مع الإنجليز أن يدخل الليبيون الحرب معهم ضد الإيطاليين وتشكل الجيش السنوسي في 9 أغسطس 1940 الذي قاتل أفراده مع الإنجليز وأدُّوا خدمات كبيرة للمخابرات البريطانية ضد الإيطاليين.

غير أن بعض الزعامات الليبية رفضت التعاون مع الإنجليز ما لم يصدروا اتفاقاً على منح الليبيين استقلالهم بعد الحرب فوقف هؤلاء من الحرب موقف المتفرج وأغلب هؤلاء الزعماء من منطقة طرابلس.

أما زعامات الجنوب الليبي فلقد تعاونوا مع الفرنسيين وانخرطوا ضمن الجيش الفرنسي الزاحف من تشاد وساعدوه على طرد الطليان.

وقد طلب الإنجليز من الملك عبد العزيز أن يسأل السعداوي عن إمكانية التعاون معهم خاصة بعد وصول رومل إلى مشارف الإسكندرية، فكان ردّ السعداوي: أنه لا يمانع شريطة أن يقبل الإنجليز بإعطاء ليبيا استقلالها عند انتصار الحلفاء.

وقد صرح (إيدن) في مجلس العموم البريطاني في 8 يناير 1942 قائلاً: «إنه ينتهز الفرصة ليعبر عن التقدير التام الذي تحمله حكومة صاحب الجلالة البريطانية للنصيب الذي قام به وما زال يقوم به السيد إدريس السنوسي وأتباعه في المجهود الحربي البريطاني. وقد وطّدت حكومة صاحب الجلالة البريطانية عزمها على أنه متى انتهت الحرب، فلن تسمح بوقوع السنوسيين في برقة تحت النير الإيطالي مرة أخرى بأي حال من الأحوال..».

وقد انتهز بشير السعداوي وجوده مع الملك عبد العزيز في لقائه مع تشرشل وسأل (إيدن) قائلاً: «لماذا أنتم عندما دخلتم برقة صرحتم بأن لن تعود تحت الحكم الإيطالي وأغفلتم ذكر طرابلس مع أنكم طردتم كذلك قوات المحور منها»، فكان جواب (إيدن): «إن برقة وحدها ما يحق لنا الحديث عنها، أما طرابلس فالتصريح بشأنها من اختصاص حلفائنا جميعاً..».

وقد وجد بشير الفرصة سانحة له لزيارة إخوانه الليبيين المتواجدين بمصر ووجد الانقسام ظاهراً بينهم بخصوص المشاركة في الحرب من عدمه، فاللجنة الطرابلسية ترفض الدعوة لإدريس السنوسي بالإمارة إلا بعد استشارة الليبيين عندما يملكون مصيرهم. أما مجموعة برقة فهم متفقون على إمارة إدريس وعلى الحرب إلى جانب الإنجليز.

عاد السعداوي إلى مصر مرة أخرى برفقة الأمير سعود بن عبد العزيز في اجتماع ملوك ورؤساء العرب في (انشاص) في مايو 1946 وعند عودته استأذن من الملك عبد العزيز التفرغ لقضية بلاده (ليبيا) حيث سمح له المغفور له الملك عبد العزيز بالتفرغ لقضيته، وفي مارس 1947 تأسست بزعامته (هيئة تحرير ليبيا).

السعداوي والجهاد السياسي في ليبيا

ما أن وصل السعداوي إلى مصر حتى شرع في لمّ الشمل ورقع الشرك بين الأمير إدريس السنوسي ومجموعة طرابلس.

وقام بتأسيس (هيئة تحرير ليبيا) والتي تشكّلت من مجموعة من الأشخاص النشيطين بعضهم قارع الاستعمار في فترة الجهاد وبعضهم له تأثير على مجموعات من المواطنين، وقد كانت الجامعة العربية في بداياتها وكانت قضية ليبيا في أوجها فوقفت الجامعة العربية موقفاً تشكر عليه ويحفظه التاريخ لها خاصة وأن أمينها العام الجديد هو عبد الرحمٰن عزام الرجل الذي واكب الجهاد الليبي وله علاقات طيبة مع الكثير من الزعامات الليبية.

ونجد في بيان اجتماع (انشاص) 28 و29 مايو 1946 للرؤساء والملوك العرب فقرة تعني ليبيا تقول: «إن الملوك العرب ورؤساءهم وأمراءهم تناولوا بالبحث مسألة طرابلس وبرقة ووجدوا أنفسهم متفقين تمام الاتفاق على أن استقلال هذه البلاد أمر طبيعي وعادل، وأن حكوماتهم متفقة على ضرورته لأمن مصر والبلاد العربية وأن على جامعة الدول العربية التي قضى ميثاقها برعاية شؤون العرب ومصالحهم أن تهيىء الأسباب لهذا الاستقلال وأن تتعهده في بادىء الأمر بالرعاية اللازمة لظهور حكومة عربية في تلك البلاد ومعاونتها أدبياً ومادياً حتى تستطيع النهوض بمسؤولياتها داخلاً وخارجاً لعضو من أعضاء جامعة الدول العربية».

كما أن هيئة الأمم أرسلت لجنة لتقصي الحقائق في ليبيا وسبر آراء المواطنين، فلقد نشط بشير السعداوي ومجموعة كبيرة من المثقفين لتعبئة الشعب على المطالبة بالاستقلال والوحدة والانضمام للجامعة العربية، وكان هذا هو شعار الأحزاب التي اتفقت على وحدة البلاد وعلى عدم تمزقها وكذلك الاتفاق على إمارة إدريس السنوسي، ثم غير (هيئة التحرير) وسمّاه (حزب المؤتمر) ذلك الحزب الذي انبثق على مؤتمر شعبي عقد في مسجد مراد آغا بتاجوراء (شرق طرابلس)، وقد انضم أغلب الشعب لهذا الحزب ووزعت بطاقات حزبية على المنضوين تحت لوائه كتب عليها شعار (الاستقلال، الوحدة، الانضمام إلى الجامعة العربية) وعلى الصفحة الأخرى الخارجية في الغلاف كتب (الحرية شجرة لا يتفيأ ظلالها إلا من غرسها بيده وسقاها بدمه).

وكان بشير السعداوي يتجول في مناطق الدواخل يلتقي

بالمواطنين ويرافقه الشعراء الشعبيون وأهمهم الشاعر ضو العساس والشاعر عبد الرحمٰن التائب يحرضون الناس على المطالبة بالاستقلال ويزينون لهم الجهاد في سبيل الوطن إذا ما قرر الاستعمار الإيطالي العودة إلى البلاد، كما كان الأستاذ الأديب الكبير علي مصطفى المصراتي خطيباً مفوّهاً لحزب المؤتمر.

وكانت بريطانيا ضد هذا الحزب فهي تسعى لتقسيم ليبيا وكوَّنت لذلك حزباً عرف باسم (الحزب الفيدرالي) وإني لأذكر وأنا في السنة الثانية الابتدائية في قرية (الجميل) على الساحل الليبي الغربي جاء بشير إلى المنطقة التي احتفلت به أيّما احتفال، وكنت مع أطفال المدرسة حاضرين للاحتفال وكان المحتلون يوزعون أوراقاً عليها صور مرشحين للحزب ونبذة عن حياتهم ودعاية لهم وصار الأطفال يتخاطفون تلك الأوراق ولما أنني لم أتحصل على ورقة ـ بالرغم من أننا جميعاً لا نعرف فحواها ـ اندفعت نحو بشير السعداوي الذي خرج من الحفل ليركب سيارته، وكان شيخاً مديد القامة نحيف الجسم يلبس بدلة أوروبية وطربوشاً ويزين ذقنه بلحية صغيرة، تعلقت بذراعه وأنا أقول: يا عمي أعطني ورقة، فالتفت لي وربَّت على رأسي وهو يقول: ليست لدي أوراق، الأوراق هناك وركب سيارته وذهب.

وكنا في تلك القرية النائية لأول مرة نرى سيارة صغيرة، أما بشير السعداوي فكنا نحفظ أشعار مدحه عن ظهر قلب.

جاءت فترة الانتخابات وقامت الحكومة المؤقتة التي يديرها الإنجليز بتزويرها لصالح حزب الفيدرالي الذي نجح وأصبحت ليبيا

ثلاثة ولايات طرابلس وبرقة وفزان التي لم يبرحها الفرنسيون إلا عام 1956 بعد مصادمات ومظاهرات أخرى وقد رافق هذه الانتخابات مصادمات مع الشرطة والإدارة الإنجليزية سقط فيها عدة قتلى في الزاوية والعجيلات وبني وليد وغيرها.

وتشكَّلت حكومة موالية للإنجليز برئاسة محمود المنتصر الذي كان أيضاً موالياً للطليان وتحت قيادة الملك إدريس السنوسي، كان أول قراراتها إبعاد المجاهد بشير السعداوي منفياً خارج الوطن، وكذلك رفيقه المجاهد أحمد زارم الرحيبي رئيس تحرير جريدة (شعلة الحرية) الناطقة باسم (حزب المؤتمر). وسجن الكاتب علي مصطفى المصراتي.

سافر بشير إلى بيروت حيث تقيم أسرته، وسافر أحمد زارم إلى تونس، كان ذلك عام 1952 م، كما أودع الكثير من أنصار الحزب السجون في مدد متفاوتة ولوحق المجاهد غيث بن عمار البلعزي وحوصر وقتل في خيامه بسهل الجفارة.

بقي بشير السعداوي متنقلاً بين بيروت ودمشق والرياض، وأصيب في رجله من جراء مرض السكري، ولم يعالج في متسع من الوقت، ورفض بتر رجله فتوفي عليه رحمة الله في بيروت 1957 عن عمر يناهز الثانية والسبعين قضاها في الجهاد من أجل أمته العربية والإسلامية ووطنه ليبيا.

وقد كان بشير السعداوي يجيد اللغة التركية إلى جانب لغته العربية. وجاء في كتاب تاريخ الملك عبد العزيز الدبلوماسي في التعريف ببشير السعداوي:

«مستشار الملك عبد العزيز، وهو مجاهد ليبي ضد الإيطاليين من أهل طرابلس الغرب، وعمل في الرياض مستشاراً للملك عبد العزيز آل سعود مدة عشر سنوات (1358 ـ 1368) هجري الموافق (1939 ـ 1949) ميلادي، وكذلك عاد مرة ثانية إلى المملكة ليعمل مستشاراً غير رسمي للملك عبد العزيز، إلا أنه استقال وانصرف إلى قضية بلاده، وكان له دور في المفاوضات الخاصة باستقلال ليبيا، وعاد في بدء استقلال بلاده، فلم يسترح إليه الملك محمد إدريس السنوسي، فانصرف إلى مصر، وتوفي رحمة الله عليه في بيروت عام 1376 هجري 1957 ميلادي. تولى العديد من المسؤوليات الدبلوماسية ومنها مهمته التي بعثه من أجلها الملك عبد العزيز إلى سوريا لدعم الكتلة الوطنية، وتقديم النصح لها في عام 1958 هجري 1939 ميلادي.

كما أوفد الملك عبد العزيز السعداوي إلى اليمن مع الأمير محمد بن عبد العزيز، وشارك السعداوي في لقاءات الملك عبد العزيز برئيس الوزراء البريطاني ونستون تشرشل والرئيس الأمريكي روزفلت وزيارة الملك إلى مصر»[1].

وهكذا ترجل الفارس الذي جاهد من أجل إعلاء العروبة والإسلام أكثر من ستة عقود من الزمن في مختلف بقاع الوطن العربي والإسلامي، حاملاً سيفه حيث يحمل السيف وقلمه حيث يحمل القلم، وقد عرفت ميادين الجهاد صولاته وجولاته كما عرفت الصحف مقالاته وتوجيهاته.

---

(1) المصدر السابق، ص 505.

وبعد قيام ثورة الفاتح من سبتمبر العظيمة أحضر جثمانه إلى أرض الوطن حيث دفن بمقبرة سيدي منيدر[1] في احتفال مهيب حضره الآلاف من مواطنيه.

ولأسرة السعداوي فروع في كل من مصر ومكَّة المكرمة، وقد ترك بشير السعداوي ولداً واحداً هو عبد الحميد، وتوفي له بالتيفود أولاده عبد المجيد وبنتين في سوريا بعد قدومه إليها.

وقد ترك ابنه عبد الحميد ولدين هما فيصل ومحمد يقيمان بالسعودية وبنتاً هي آمال تزوَّجت بمصر من عبد الله المهاب من أصل جزائري.

كما ترك المختار السعداوي وهو أخ بشير من والده أربعة بنات هن عفاف تزوَّجت بلبنان، ونبيلة تزوَّجت بقطر من عبد الله الدرويش رئيس وزراء قطر الأسبق، ولها منه ولد هو يوسف مأمون، وسميرة تزوَّجت من الأمير ناصر بن عبد العزيز، وسلوى تزوَّجت من غسان شهاب بلبنان. أما الأخ الأصغر لبشير المسمى أحمد، فلقد ترك ولداً واحداً هو مصطفى الذي ترك عدة أولاد هم أحمد ومحيي الدِّين وأميمة ودوجة ونها، وأسرة نوري يجدها القارىء في ترجمة نوري.

(1) سيدي منيدر: هو الصحابي الجليل، مدفون بطرابلس.

لا تنسى ذكر الله

جمعية الدفاع
عن
طرابلس وبرقة

حضرة المواطن الكريم

تتشرف جمعية الدفاع عن طرابلس وبرقه ان تحيطكم علما بانها قد اتخذت لها غرفة خاصة فى المكتب العربى القومى للدعاية والنشر بدمشق وانها لاتزال توالي العمل وتناضل فى سبيل الدفاع عن ذلك القطر الذى يئن تحت ظلم الاستعمار الفاشيستى الغاشم مستمدة على الله فى جهادها الوطنى مستهدفة تحقيق برنامجها الذى يتضمن حقوق الشعب الطرابلسى البرقاوى وفى نفس الوقت تستمد القوة من المؤسسة القومية الكبرى الا وهى المكتب العربى القومى الذى تولى ادارته نخبة من قادة الفكر ومن اهل الايمان بالقومية العربية الشاملة ولما كانت قضية الدفاع عن طرابلس وبرقه هى قضية حيوية تهم كل فرد من افراد ذلك القطر المفجوع فالواجب يقضى بتوحيد الجهود وتضافر القوى وتعزيز المساعى لتحقيق الامانى الوطنية ولذلك فجمعية الدفاع ترى من الضرورى الاتصال بكل ابناء الوطن الاعزاز ليوافوننا بما لديهم من اراء وتدعوهم لاتخاذ كل التدابير الفعالة لمكافحة الخطر الفاشيستى المبيد.

خصوصا وان الخطر الايطالى الفاشيستى لايقف عند حد القضاء على وطننا العربى الصغير بل يهدد الوطن العربى كله اذا ظل طغيانه الجارف يمتد بدون مقاومة ولا كفاح.

لذا فالواجب يقضى بمكافحة السياسة الفاشيستية وفضح اعمالها فى بلادنا ليتضح لكل عربى مايلاقيه شعبنا من ظلم وارهاق ولكى يتمكن رجالات العرب من تلافى الخطر الذى يهددهم فى اوطانهم جاعلين لهم بما يحدث فى طرابلس وبرقه دليلا حيا على فظائع تلك الدولة الغاشمة.

وفى الختام ندعوا الله ان يوفقنا لما فيه خير البلاد ونفع العباد وتفضلوا بقبول تحياتى.

١٩٣٩ ...

رئيس جمعية الدفاع

بشير السعداوى

أحد التعاميم التي كان يرسلها بشير السعداوي إلى المواطنين لتبصيرهم بجرائم الطليان في طرابلس وبرقة.
(الأصل في شعبة الوثائق والمخطوطات بمركز جهاد الليبيين).





رسالة من المجاهد بشير السعداوي إلى المجاهد أحمد المريض يخبره فيها بمحاولة الأمير شكيب أرسلان في التأثير على موسوليني لإنصاف الليبيين. (الأصل في شعبة الوثائق والمخطوطات بمركز جهاد الليبيين).

رسالة من المجاهد بشير السعداوي رئيس جمعية الدفاع عن طرابلس وبرقة. يراسل بها الرئيس الكبير لجمعية الدفاع عن حقوق الحبشة. وتوحيد الجهود ضد الطليان المستعمرين للبلدين ليبيا والحبشة. (الأصل في شعبة الوثائق والمخطوطات بمركز جهاد الليبيين).

لا تنسى ذكر الله

سليمان باشا الباروني

هو الأديب الشاعر والمجاهد الكبير سليمان باشا الباروني ولد عام 1873 ميلادي 1290 هجري ببلدة (جادو)[1]، إحدى قرى الجبل الغربي وترجع أسرته بأصولها إلى (عُمان) قرية (البروانيين) التي جاء منها جده الأول أبو موسى هارون أحد أئمة المذهب (الأباضي) الذي تولَّت الأسرة رعايته والتفقه فيه في الجبل الغربي وجنوب الجزائر، وكان والده عبد الله الباروني من علماء المنطقة ومن مؤسسي مدرسة دينية تعلم القرآن للناشئة في منطقة (كاباو)[2] بالجبل الغربي، عرفت باسم المدرسة البارونية.

وقد تعلم سليمان في مدرسة والده، ثم انتقل إلى جامع الزيتونة بتونس وأتمَّ تعليمه من بعد ذلك بالأزهر الشريف، كما تنقل في بلدان المغرب العربي، ووصل إلى جنوب الجزائر منطقة (بني مزاب) مركز المذهب الأباضي وعاصمة الدولة الرستمية التي تأسست على هذا المذهب، وكان الجبل الغربي في ليبيا أحد ركائزها، وبرز منه مجموعة

---

(1) جادو: هي إحدى قرى الجبل الغربي وتسمى فساطو، يسكنها أهالي فساطو الذين جاء جدهم الأول من وهران بغرب الجزائر وهو عربي من بني هلال وأمهم من قبيلة المحاميد في منطقة (يفرن) وأنجبت أربعة أولاد هم عمرو وسلطان والحارث وهم أجداد أهل فساطو.

(2) كاباو: مدينة بالجبل الغربي، قد يكون اسمها مأخوذ من القائد النوميدي (كاباون).

كبيرة من العلماء الأفذاذ الذين أوقفوا حياتهم على العلم والتدريس ومنهم المرحوم الشيخ علي بن يخلف التينميجاري الذي وصل بدعوته إلى جمهورية مالي الحالية، وله أتباع ومريدين بها حتى هذه الساعة.

وقد تأثَّر الباروني سليمان بتاريخ الدولة الرستمية، وفي أواخر العهد العثماني في ليبيا اتُّهم بأنه يريد إعادة هذه الدولة على حساب الدولة العثمانية فقبض عليه وحوكم وصدر ضده حكم بالسجن، ولما خرج من السجن آثر الهجرة إلى مصر حيث أسس هناك مطبعة وجريدة تسمى (الأسد الإسلامي) لم يصدر منها إلا ثلاثة أعداد وتم قفلها بأمر السلطات المصرية 1906.

وقد هيّأت له إقامته ببلاد مصر جوًّا من الثقافة والعلوم جعلت مداركه تتَّسع واستفاد من الحركة الثقافية والفكرية في مصر، كما عقد صلات مع كبار العلماء والمثقفين في مصر، وكانت دعوة الشيخ محمد عبده على أشدها وتمكَّن في هذه الفترة من طبع كتاب والده عبد الله الباروني المسمى «سلم العامة والمبتدئين» كما نشر ديواناً لشاعر من حضرموت وهو ديوان (السيف النقاد للحضرمي) ونشر أيضاً كتاب (وفاء الضمانة بأداء الأمانة) لشيخه الشيخ محمد اطفيش، كما طبع كتاب (الأمالي والذيل) لأبي علي القالي، وكتاب (النوادر) للبغدادي، وحاشية الشيخ السالمي على مسند الإمام الربيع، وديوان (القلائد الدريّة) للشيخ التندميرتي[1]، كما طبع الجزء الثاني من كتاب (الأزهار الرياضية في أئمَّة وملوك الأباضية)، وكذلك كتاب (النيل) للشيخ

---

(1) تندميرة: قرية من قرى الجبل الغربي ينسب إليها هذا العالم.

اطفيش طبعت أجزاؤه السبعة بمطبعة الباروني التي سماها (الأزهار البارونية) وسافر في رحلة علمية من مصر إلى المغرب عن طريق مالطة ومرسيليا وتونس والجزائر ووهران ومدينة تلمسان، وقد قوبل بابتهاج كبير من قبل علماء المنطقة وأدبائها، ثم عاد إلى مصر حيث انتهت إقامته فيها بعودة الدستور 1908 فعاد إلى طرابلس الغرب ورشح نفسه للانتخابات في مجلس المبعوثان العثماني على منطقة الجبل الغربي وفاز في هذا الترشيح وأصبح نائباً عن الجبل الغربي.

وكان في هذه الأثناء زحف الاستعمار الفرنسي على تونس التي احتل عاصمتها عام 1881 وزحف نحو الجنوب وتصادم مع الليبيين في المناطق الغربية لضغطه على زحزحة الحدود بين ليبيا وتونس ودفعها إلى داخل التراب الليبي الأمر الذي أدى إلى كثير من المصادمات مع المواطنين الليبيين دفاعاً عن وطنهم في غيبة الحكومة العثمانية[1] التي لم تحرك ساكناً، وكان سليمان الباروني من المدافعين عن هذه القضية والمنبهين لخطر الاستعمار الفرنسي في مجلس المبعوثان التركي، ولكن لا حياة لمن تنادي.

انتقل سليمان الباروني إلى اسطنبول ليمارس وظيفته هناك، وتعلم التركية في فترة وجيزة، وقد قدم الباروني تقريراً سريًّا لمجلس المبعوثان ينبّه الحكومة العثمانية إلى أطماع الطليان في ليبيا.

وفي منتصف عام 1911 عاد إلى بلاده لوفاة والدته رحمها الله،

---

(1) استشهد في المعارك مجموعات من الليبيين في كل من قبائل النوائل والصيعان وأولاد مريم والحوامد ووازن ونالوت، وقد كان جد المؤلف أحد هؤلاء الشهداء في معركة سنة 1905.

ومكث إلى أن وقع الهجوم الإيطالي على ليبيا في أكتوبر 1911 فكان سليمان الباروني على رأس مجاهدي الجبل الغربي في الدفاع عن وطنه وحضر معارك الشط والهاني وسيدي المصري 1911 ومعارك سيدي سعيد وسيدي علي وسيدي عبد الصمد وطويلة غزالة 1912، وعندما قررت تركيا الانسحاب من ليبيا وتركها لمصيرها في اتفاقية لوزان 1912 وسحبت ضباطها وجنودها من ليبيا، كان سليمان الباروني على رأس المجاهدين الذين اجتمعوا في بلدة العزيزية ليقرروا ما يرونه حسب الأوضاع المستجدة.

وقد كان كثير من زعماء المنطقة يرون عدم جدوى استمرارية الجهاد بعد انسحاب تركيا، وبعضهم يرى أن أوامر السلطان العثماني تنسحب عليهم لكونهم رعايا أتراك.

وقف سليمان الباروني على رأس العازمين على مواصلة الجهاد ورفض التسليم ويدعمه في ذلك الشيخ سوف المحمودي ومجموعة من قيادات المنطقة الغربية أمثال محمد بن عبد الله البوسيفي وسعد حلبودة الصويعي والشيخ حرب النائلي وزعامات الجبل الغربي والعلالقة وزوارة وأقسم المجتمعون أنهم لا يحلقون شعورهم حتى تستقل البلاد، ذلك الشعر الذي طال فيما بعد وتحدث الباروني عنه في أشعاره وأصبح محل انتقاد له من قبل العلماء في منطقة (عُمان) عندما لجأ إليها أخيراً.

واصل الباروني وأصحابه الجهاد وهاجمتهم القوات الإيطالية بضراوة طيلة أواخر عام 1912 وأوائل عام 1913، حيث استطاعت هذه القوات من التركيز على الباروني ومجموعاته في معركة الأصابعة

الشهيرة 23 مارس 1913 ويقول الأستاذ خليفة التليسي في كتابه معجم معارك الجهاد في ليبيا عن هذه المعركة[1]:

«تعتبر هذه المعركة خاتمة المعارك التي جرت في الفترة الأولى من مراحل الجهاد بطرابلس الغرب، فبعد أن احتل الإيطاليون غريان في ديسمبر 1912 تجمع المجاهدون في مجموعات كبيرة اتخذت مواقعها بين الأصابعة والرابطة للوقوف في وجه الزحف الإيطالي نحو الجبل وكانت هذه القوة الوطنية بقيادة سليمان الباروني..».

ويستمر الأستاذ التليسي متحدثاً عن هذه المعركة إلى أن يقول: «.. إلا أن الإيطاليين لم يتمكنوا من ذلك إلا بعد معركة مريرة تكبدوا فيها خسائر فادحة، كما أبلى المجاهدون في هذه المعركة بلاءً حسناً وكانوا يعملون جميعاً تحت قيادة كبار رجالات الحركة الوطنية في ذلك الوقت واستشهد من المجاهدين عدد كبير وغلبوا على أمرهم بعد نفاذ الذخيرة وسيطرة القوة..».

وقد توغلت مجموعة من المجاهدين بعد هذه المعركة إلى الجنوب نحو فزان بقيادة المجاهد الكبير محمد بن عبد الله البوسيفي أما الشيخ سليمان الباروني والشيخ سوف المحمودي وسعد حلبودة وحرب النائلي وسلطان بن شعبان وغيرهم من المجاهدين ارتحلوا داخلين إلى الأراضي التونسية على رأس مجموعات من قبائلهم في أبريل 1913 حيث أوقفتهم القوات الفرنسية قرب الحدود وسلبتهم أسلحتهم ومنعتهم من الدخول إلى داخل التراب التونسي وطلبت منهم العودة إلى طرابلس

---

(1) التليسي: المصدر نفسه، ص 108 ـ 109.

الغرب حيث ينتظرهم الطليان، غير أن المجاهدين أصرّوا على عدم العودة واستطاع قيادات المجاهدين أن يقنعوا فرنسا بالسماح لهم بالهجرة إلى تركيا لأنهم رعايا أتراك. وهكذا سافر الشيخ سليمان الباروني والشيخ سوف المحمودي والشيخ سعد حلبودة وغيرهم إلى تركيا، حيث استقر أغلب المهاجرين ببلاد الشام بحلب وبيروت ومناطق المفرق والرمثة في شمال الأردن.

أما سليمان الباروني فلقد وصل إلى تركيا وكانت الحرب العالمية الأولى على الأبواب، وما أن اشتعلت الحرب العالمية الأولى حتى أرسلته تركيا مع مجموعة من الضباط الأتراك إلى السيد أحمد الشريف السنوسي الذي يقود الجهاد الليبي في منطقة برقة ويتخذ من واحات جالوا وأوجلة والجغبوب مقراً له، فوصل الباروني إلى السلوم.

وكان الغرض هو دفع السيد أحمد الشريف بمن معه من الليبيين المجاهدين أن يهاجموا الإنجليز في مصر وهي المهمة التي رفضها بشير السعداوي وذلك لمساعدة الحملة العسكرية التي يقودها جمال باشا من الشام عبر فلسطين إلى مصر.

رفض أحمد الشريف أن يندفع في حرب الإنجليز وهو يقاتل الطليان، والليبيون تفنيهم الحرب والمجاعة، وهجومه على مصر سيقفل في وجه الليبيين الأسواق المصرية وبالتالي ستفنيهم المجاعة.

أصرّ الباروني على رأيه ويساعده في ذلك مجموعة الضباط الأتراك وبعض أقرباء أحمد الشريف الذي اكتشف مؤامرة لتفجير خيمته والتخلص منه، وتم القبض على بعض مدبريها وكان من ضمنهم

سليمان الباروني حيث بقي في سجن السيد أحمد عدة أشهر ثم أطلق سراحه فعاد إلى تركيا وهناك تم تعيينه والياً على طرابلس الغرب، وجاء إلى المنطقة يحمل فرماناً سلطانياً بهذا التعيين، وأنزلته غواصة ألمانية في ميناء مصراته الذي استطاع أهالي مصراته بزعامة رمضان السويحلي طرد الطليان منه بعد معركة القرضابية الشهيرة 1915.

وكان الباروني يحمل نياشين وهدايا من السلطان لقيادات المجاهدين في ليبيا والذين استطاعوا دون أية مساعدة من دحر الطليان وطردهم من جميع مناطق الجنوب الليبي في معارك شهيرة في القاهرة ومرزق وأوباري وادري وبونخيم وغدامس ونالوت وكاباو والحمراء وسواني القصور والزنتان وبني وليد ومصراته وغيرها، وجميعها بين أواخر عام 1914 وأوائل عام 1915 ولم يصل شهر يوليه 1915 حتى تطهرت كل البلاد من الطليان وانحصروا في خمس مدن ساحلية هي: زوارة، طرابلس، الخمس، بنغازي، طبرق.

وصل الباروني واستقبله مواطنوه بفرح عظيم في 18 أكتوبر 1916 ولهم في استقباله قصائد وأشعار لا زال الناس يروونها، ووجد مشاكل بين منطقة ترهونة ومسلاتة من جهة ومصراته من جهة أخرى، فقام بإجراء الصلح بين الطرفين يساعده بشير السعداوي واستقر في منطقة العزيزية حيث جعل منها مركزاً لولايته، كما اتخذ من منطقة العجيلات مركزاً لقوات المجاهدين الزاحفين من الجنوب والجبل الغربي بقياداتهم سوف المحمودي الذي وصل من تركيا قبل الباروني كقائد للمجاهدين ونائب للوالي وخليفة بن عسكر الذي أفرزته الثورة ضد الطليان في منطقة نالوت.

واستمر الباروني ينظم الجهاد في المناطق الغربية ويشرف على سيره تساعده مجموعة كبيرة من الضباط الأتراك الذين أرسلتهم تركيا من جديد لتنشيط الجبهة في ليبيا، كما وجد أن المجاهدين الليبيين قد فتحوا جبهات جديدة للجهاد ضد الفرنسيين في تونس والجزائر وضد الفرنسيين أيضاً في النيجر ومالي وضد الإنجليز في مصر.

ولم تستطع تركيا إمداد المجاهدين في هذه الأقطار بالمساعدات التي وعدتهم بها فقاسوا الكثير من التعب والنصب كما سدت في وجوههم الأسواق ونقصت التغذية والذخائر والسلاح إلا بعض المساعدات التي استطاعت الغواصات الألمانية إيصالها إلى ميناء مصراته.

وعندما انتهت الحرب العالمية الأولى وأصبحت تركيا في الجانب الخاسر سحبت ضباطها وجنودها وقطعت مساعداتها وتركت الليبيين لمصيرهم المحتوم، هنا رأى سليمان الباروني وصحبه الاعتماد على الذات واجتمعوا في العزيزية وأعلنوا عن قيام (الجمهورية الطرابلسية) وانتخبوا لإدارتها أربعة من قيادات الجهاد في المنطقة الغربية هم:

سليمان الباروني، رمضان السويحلي، عبد النبي بالخير، أحمد المريض.

واستطاعت هذه الجمهورية الصغيرة المنعزلة عن العالم أن تضغط على الإيطاليين وتجعلهم يقبلون المفاوضات مع الليبيين في منطقة غرب ليبيا، حيث تفاوضوا مع منطقة شرق ليبيا وكونوا بها حكومة تحت قيادة الأمير إدريس السنوسي عرفت باسم حكومة

اجدابية، فاجتمع المجاهدون في مناطق غرب ليبيا مع الطليان في مفاوضات أسفرت عن صلح يسمى صلح سواني بن يادم عام 1919 أوقف بموجبه المجاهدون الحرب وبقوا في هدنة مع الطليان استغلها الإيطاليون لبث الفرقة بين المواطنين، إذ بثوا عيونهم وجواسيسهم وأموالهم لتفريق كلمة الليبيين ـ ومع الأسف ـ نجحوا في بعض المناطق إذ نشبت فتنة في الجبل الغربي حاول الباروني إصلاح نتائجها ولكنه لم يستطع فخرج مهاجراً 1921[1] إلى إيطاليا ومنها إلى نيس بفرنسا حيث أبقاه الفرنسيون تحت الإقامة الجبرية لمدة سنة ونصف.

وقد قلبت له تركيا ظهر المجن بعد وصول مصطفى كمال إلى الحكم حيث قطع رواتبه ومهاياه[2]، كما فعل مع السيد أحمد الشريف الذي طرده من تركيا وقد عاش في ضنك من العيش وغربة سجلها في كثير من القصائد نستدل منها بهذه الأبيات التي يتحدث فيها عن شهر رمضان الذي أدركه في الغربة بنيس يقول:

شهر الصيام قد ارتحلت مودعاً	فعليك يا شهر الرضاء سلام
صمناك يا رمضان لا عن رغبة	في معشر قال الصيام حرام
صمناك حيث يقال لا رب ولا	كتب ولا دين ولا أحكام
صمناك في باريس عاصمة البغا	مهد المعارف زهرها بسام
صمناك في مرسيليا إذ قررت	دول التحالف أسرنا وتعاموا
فاشفع إذا ما للشفاعة موقع	كيما تظلل ربعنا الأعلام
سنة مضت والله لم يفتح لنا	باب ويوم في المذلة عام

(1) انظر كتاب: خليفة بن عسكر، للمؤلف.

(2) اعتبره مصطفى كامل من أتباع الخلافة العثمانية.

أتـرى يقـدر لـي صيـام ثـالـث حيـث العبـادة للمسيـح تقـام
لا تسمـــع الأذان تكبيــراً ولا يلفـي خطيـب مـرشـد وإمـام
إلا نـــواقيســـاً تـــدق إذا أتـــى وقـــت تقـدس عنــده الأصنـام

وفي هذه الظروف المكفهرة لم ينقطع سليمان الباروني عن الكتابة والاتصال بالصحف ومتابعة أخبار وحوادث العالم الإسلامي والعربي، ولقد نشر الباروني مقالاً في جريدة الثواب التونسية انتقد فيه معاهدة الحجاز الحسينية الإنجليزية وعاب فيه خروج الشريف حسين من الرابطة العثمانية الإسلامية، وقد أرسلها للشريف حسين الذي صادفت هوى في نفسه بعد أن بدأ يشك في ولاء الإنجليز له، فأرسل إلى الباروني يعرض عليه الزيارة للحجاز ومنحه الإذن بالدخول إلى مملكة الحجاز.

سافر الباروني إلى الإسكندرية ومنها إلى بيروت ثم إلى الحجاز حيث التقى الشريف حسين الذي عرض عليه الإقامة معه في الحجاز.

أدى الباروني فريضة الحج واستأذن مضيفه في السفر إلى عُمان حيث له الكثير من الأصدقاء الذين يعرفون ويقدرون مكانته الجهادية والعلمية وتضعله في علوم المذهب الأباضي الذي يسود معظم منطقة (عُمان).

وصـل البـارونـي إلـى مسقـط حيـث السلطـان تيمـور بـن فيصـل آل سعيد الذي لم يرضخ لاعتراض الإنجليز على قدوم الباروني إلى تلك الديار وهو الذي سعى لمحاربتهم في مصر ويقول الأستاذ محمد مسعود جبران في كتابه (سليمان الباروني.. آثاره):

«واستقبل في تلك الديار من أرض شبه الجزيرة العربية استقبالاً

عظيماً ورحبت به الربوع التي كان يعيش فيها آباؤه وأجداده الأقدمون ترحيباً صادقاً وأفسح له أهلها الذين قدروا علومه وفهمه وبطولاته وبلاءه قلوبهم وعواطفهم.

وحظي من سلطان الساحل تيمور بن فيصل ومن إمام الداخل الإمام محمد بن عبد الله الخليلي بكل تبجيل وتكريم، ولم يقف الباروني من السلطان والإمام ومن أهل عُمان في الساحل والداخل موقف الزائر الغريب بل تفاعل مع العمانيين جميعاً تفاعلاً تامًّا حرص فيه على أن يظهر بمظهر المواطن الغيور والمصلح المرشد الذي لا يعنيه شيء غير بذل النصح والإسهام بالتجاريب الكثيرة النافعة التي توصل إليها في رحلة حياته الغنية بالخبرات الخصيبة بالنظرات»[1].

وكانت عُمان عند قدومه إليها تنهكها المشاحنات بين سلطان مسقط وإمام الداخل الذي يتخذ من مدينة (نزوي) مقراً له.

وقد رتب الباروني رحلات إلى نزوى حيث اجتمع بالإمام عدة مرات وعاد إلى مسقط حيث التقى بالسلطان واستطاع أن يجري بالصلح بين الطرفين وقد ساعده الله في ذلك وأصبح محل ثقة الطرفين، حيث قلّده السلطان تيمور وساماً راقياً وهو (الوسام البوسعيدي) وعيّنه الإمام رئيساً لوزرائه.

كما أرسله الإمام والسلطان في مهمة تصالحية بين الشريف علي بن حسين والملك عبد العزيز بن سعود لإيقاف الحرب الدائرة بينهما ويقول الأستاذ محمد مسعود جبران:

---

(1) محمد جبران، المصدر السابق، ص 53 ـ 54.

«فأوفداه في مسألة المصالحة بين الشريف علي بن حسين والملك عبد العزيز بن سعود لإيقاف الحرب الدائرة بينهما في الحجاز وقد مثلها خير تمثيل ووفق في مسعاه التوفيقي لولا الضغوط والمخططات الاستعمارية التي أحبطت تلك الجهود. .»[1].

ولم أستطع أن أقف على تفاصيل هذه الوساطة، واستمر الباروني في محاولاته الإصلاحية في منطقة (عُمان) حيث أنشأ مدرسة سمّاها المدرسة البارونية وهو نفس الاسم الذي سمّى به والده رحمه الله مدرسته في كاباو، وكان ذلك في منطقة في عُمان واستمرت في تعليم الناشئة عدَّة سنوات، كما ساهم بمقالاته في الصحف واتصالاته بالتعريف بقضية وطنه والدفاع عنها.

وعندما خطب الأمير شكيب أرسلان خطبته في إحدى اللقاءات العربية في بلاد الشام موضحاً أن شمال أفريقيا لا داعي من اعتباره جزءاً من بلاد العرب حتى لا يغيظ موسوليني انبرى له الباروني في مقالات نارية يسفه هذا القول ويدافع عن عروبة المنطقة.

وبالرغم من طيب مقامه بعُمان والحفاوة التي استقبل بها وجد ـ كما هو الحال ـ من علماء الأباضية من ينتقده في إطالة شعره والذي ذكرنا سبب إطالته والذي تحدث عنه الباروني في شعره حيث يقول لمن سأله عن إطالة شعره:

هذا هو الشعر الذي شهد الحروب الهائلات
وعليه أمطرت القنا بل كالصواعق نازلات

(1) محمد جبران، المصدر السابق، ص 54. سليمان الباروني باشا، ج1، ص 250.

خــاض المعــامــع لا يهــا	ب علــى الجيــاد الصــافنــات
حبًّــا بتطهيــر المــوا	طـن مــن بنــي الإيطـاليـات
آليــت أن يبقـــى إلـــى	أن يعبـــر الجنــد القنـــاة
لنــرى الغــزاة علــى ضفــاف	النيـــل تفتــك بـــالبغـــاة
ونـــرى طـــرابلــس العــزيــزة	فـــي ليـــالٍ بـــاهـــرات
تختـــال فـــي بـــرد الهنـــا	بـــالانتصـــار علـــى الطغـــاة
وتســـود أعـــلام الخليفـــة	فـــي البـــلاد الضـــائعـــات
ونـــرى الهـــلال متـــوجـــاً	جـــزر المحيـــط الخـــالـــدات
إذ ذاك يحلـــــق بيـــــن	أفـــواج الأعـــاظـــم والغـــزاة
مـــا بيـــن تهليـــل وتكبيـــر	وتقـــديـــم الصـــلاة
فيكـــون عنـــوان الفتـــوح	مـــدى العصـــور الـــدائـــرات
أو هكـــــذا يبقـــــى إذا	لـــم ينتصـــر حتـــى الممـــات
يـــا مـــن وعـــدت المسلميـــن	النصـــر أمنـــن بـــالحيـــاة

كما سجل الباروني مجموعة كبيرة من القصائد منها مدحه للسلطان تيمور بن فيصل حيث يقول أثناء منحه الوسام (البوسعيدي):

تيمـــور يـــا تـــاج الملـــوك	ويـــا متـــوج فخـــرهـــا
قلـــدتنـــي نعمـــاً عجـــزت	عـــن الـــوفـــاء بشكـــرهـــا
قـــد زان صـــدري بـــالـــوسـام	يـــد تـــوالـــي بـــرهـــا
فغـــدوت أسمـــو تـــائهـــاً	والـــدهـــر يخضـــع مكـــرهـــاً
عـــش بـــالهنـــاء مـــؤيّـــداً	مـــا الشمـــس أشـــرق فجـــرهـــا
ولتخـــدم الأيـــام مـــن	أمســـى قـــلادة نحـــرهـــا

أعنـــي ولـــي العهـــد   نبـراس المشـارق بـدرهـا
ولتفخـــرن ظفـــار إذ   شـرفـت بحكـم ثغـرهـا
ومنحتهـــا بعنـــايـــة   ســار النسيـم بعطـرهـا
لا زلــت تـرتـاد الممالـك   بـالعلـوم ونشـرهـا
هــز اللــواء وسـر تقـود   الكـائنـات بـأسـرهـا
ونـــوال مـــزنـــك غـامـر   لجـج البحـار وبـرهـا

كما مدح الإمام محمد بن عبد الله الخليلي إمام الداخل حيث يقول:

الله أكبـــر هلـــل الخطبـــاء   وعلا الهتاف وهاجت الشعراء
واهتز أهل المشرقين ففاخروا   ونمـا الشعـور وطـارت الأنبـاء
وبدت لعصر الراشدين دلائل   إذ لاح مـن جبـل الشـراة سنـاء
فأضاء واسطة البلاد وأشرقت   بعمـان شمـس إمـامـة سمحـاء
وعــلا أمـام المسلميـن محمـد   عـرضـاً تطـأطـأ دونـه الجـوزاء
ذاك المعظم قطب دائرة الهدى   مـن أخلصـت للـوائـه الجـوزاء
فـأشـاد للـديـن القـويـم منـارة   والأمـن مـد رواقـه الـرؤسـاء
وحكت مآثره الجليلة من مضى   فـالتـف حـول مقـامـه العلمـاء
فـاهنـأ بـذلـك يـا ابـن عبـد الله   وليهنـأ بنـوك الشعـب والأمـراء
وليمـرح الـوطـن المقـدس رافلاً   مـن حلـة استقـلالـه الحمـراء
هـذا هـو النصـر المبيـن بعينـه   أعطيتـــه فـــانقـــادت العليـــاء

وقد ترك لنا الباروني مجموعة من القصائد في ديوان تمجد عُمان ونزوى وأهلها واستمر الباروني في عمان قرابة السبع سنوات قضاها بين

إخوة أعزاء وأهل كرام، غير أن صحته بدأت تذبل وهاجمته حمى الملاريا وضغط الدم مع تقدمه في السن، فآثر الانتقال إلى بغداد فاتصل بالملك فيصل بن الحسين الذي رحب به وفسح له المكان في بغداد حيث وصلها في أواخر عام 1929 وقد عبر الملك فيصل عن تقديره للشيخ الباروني حيث قال:

«إنها الشخصية التي يقدرها الجميع والتي يعرف لها كل عربي مكانتها في حقل الكفاح الوطني والقومي»[1].

ويقول الباروني عند وصوله إلى بغداد:

رميت عصا الترحال بعد مشقة ... بدار السلام قبلة العرب بغداد
فنلنا بها عزًّا وزالت همومنا ... بصحبة أقيال البطولة أمجاد
بها الملك الصمصام غازي بن فيصل ... سليل الحسين السبط أفخر أجداد

وفي العراق اختلط الباروني بالوسط الثقافي والعلمي واستقبله الجميع بالتقدير والاحترام وارتاحت نفس الباروني وتفرغ للكتابة فنجد له الكثير من الرسائل لإخوانه الليبيين في الشام ومصر وتونس وفي ليبيا، كما نجد له الكثير من القصائد الشعرية، كما كان رحمة الله عليه يفكر في جمع كتابه (تاريخ الحرب في طرابلس الغرب).

وقد أكرمه الملك فيصل رحمه الله ومن بعده ابنه غازي جزاهما الله خيراً، وفي السنة التي توفي فيها الملك غازي 1938 وصلت الباروني رسالة من السلطان سعيد بن تيمور آل سعيد يطلب فيها منه أن يقدم إلى مسقط ليكون مستشاره في عاصمته مسقط، وافق الباروني

(1) حياة سليمان باشا الباروني، ص 39.

وانتقل عائداً إلى مسقط حيث استقر بأسرته بعُمان، غير أن المرض لم يتركه يستريح، فطلب من السلطان سعيد إجازة للسفر إلى العلاج، ولكن السلطان تمهل في منحه هذه الإجازة إلى أن واتت المناسبة بانتظام وفد عُماني لزيارة الهند برئاسة السلطان نفسه ورافق معه الشيخ سليمان الباروني في رحلة عمل وعلاج.

وفي مدينة بومباي الهندية وعند فجر 23 ربيع الأول 1359 هجري مايو 1940 وافاه الأجل المحتوم عن عمر يناهز السابعة والستين سنة قضاها في الجهاد بالسيف والقلم والدفاع عن أمته العربية والإسلامية رحمه الله، وقد ترك سليمان الباروني ولداً يسمى إبراهيم وبنتين هما زعيمة وعزيزة.

وبعد قيام ثورة الفاتح من سبتمبر العظيمة في الجماهيرية، أحضر جثمان المجاهد الكبير من الهند وتم دفنه بمقبرة سيدي منيدر في طرابلس الغرب تلك المدينة التي دافع عنها بسيفه وقلمه، وقد احتشد آلاف المواطنين لمواراته التراب رحمه الله.

وللمجاهد سليمان الباروني مجموعة من القصائد في مناطق مختلفة من عُمان وخاصة (نزوى) وأخرى في بغداد، ويمكن الاطلاع عليها لمن رغب في زيادة معلوماته عنه أن يطالع ديوانه (ديوان الباروني) أو كتاب الأستاذ محمد مسعود جبران (سليمان الباروني آثاره) وكتاب ابنته زعيمة الباروني (صفحات خالدة من الجهاد الليبي)، وهو الكتاب الذي جمع رؤوس أقلامه ليتفرغ لكتابته عن تاريخ الجهاد في طرابلس الغرب، ولكن المنية عاجلته فأكملت ابنته زعيمة رحمها الله مجهود

والدها وأثرت المكتبة العربية بسر مهم من تاريخ الجهاد الليبي.

ولعلَّه من الأحرى بنا أن نختم هذه النبذة عن شاعرنا الكبير بقصيدة قالها وهو في أعلى جبل (نزوى) حيث يقول:

قف هاهنا وانظرن نزوى وقلعتها ومسقط قابلا جعلان والجارا
وانظر صحار وحي البحر ملتفتا إلى البريمي تجد في حضنها نارا
وأقبل بوجهك للعينين متجهاً نحو الحجاز وحي الغرب والدارا
هنا سليمان أحيا الليل مبتهلا وهاهنا أوقد الباروني النارا
يتلو الكتاب يناجي الله منفردا والليل داج وكان الدمع مدرارا

أو قوله وهو يقف على قمة أحد جبال عُمان موجهاً وجهه شطر الوطن قائلاً في وحشة يدفعها الشجن:

في جانب الحمراء طود شامخ متمنطق متعمم بسحاب
يممت قمته الرفيعة راجلا وسجدت للخلاق في محراب
ومع الأثير بعثت منه تحيتي لجميع من في الأرض من أحبابي
ومع الشعاع رفعت صاعدة إلى عرش الإلّه مطالبي ومثابي
أرجو من المولى قبول جميعها وشمول كل أقاربي وصحابي

لا تنسى ذكر الله

محمد خالد القرقني

هو أبو الوليد محمد خالد القرقني، ولد في طرابلس الغرب عام 1882 من أسرة معروفة في طرابلس ولها دور في إدارة المدينة ويرجع نسبه إلى جزيرة (قرقنة) التونسية غير أنه يقول: إن جده نفي إلى الجزيرة وبذلك سمي بها، ووجدت له لقباً في الجزيرة العربية (آل هود) وهذا اللَّقب لا يعرف به في ليبيا ولا أدري انتسابه (لآل هود) الذين أسسوا إمارة في الأندلس أو إلى نبي الله هود.

كانت أسرته من الأسر المعروفة في طرابلس الغرب وعلى علاقة ببعض الأسر، منها أسرة الفقيه حسن، ولقد درس محمد خالد القرقني في مدارس طرابلس وتخرج من المدرسة الرشيدية، وهي مدرسة أسسها رشيد باشا، ومستواها يتجاوز الإعدادية، وكانت أسرته مثل أغلب الأسر الطرابلسية تزاول التجارة التي تخصص فيها خالد وأصبح من تجار المدينة.

ونظراً لثقافته ومركزه الاجتماعي عيّنه الأتراك قائمقاماً في منطقة النواحي الأربعة[1] وبقي بهذه الوظيفة حتى قدوم الغزو الإيطالي.

(1) منطقة قريبة من طرابلس تسكنها قبائل العلاونة وعكارة والختنة والرقيعات، وهي قبائل مشهورة بالفروسية ولها دور معلوم في الجهاد ضد الطليان فيما بعد.

وفي فترة توليه لهذه القائمقامية قام بكثير من الجهود لتحسين وضع البدو وطالب ببناء مدارس لهم تحتوي على أقسام داخلية حتى يستطيع البدو تدريس أولادهم، كما طالب بإيجاد مدرسين متنقلين مع البدو يدرسون أولادهم في المنتجعات وهي طريقة عربية ليبية قديمة يعمل بها مدرسي القرآن الكريم في المخيمات والمنتجعات ولا تزال هذه الطريقة يدرس بها في الصحراء الكبرى حتى الآن.

ولقد كان محمد خالد القرقني من أوائل قيادات الجهاد الذين امتشقوا السلاح وقاتلوا الطليان عند غزوهم لليبيا، واشترك في معارك الهاني والشط وعين زارة سنة 1911، غير أنه بعد صلح (أوشي) وانسحاب الأتراك من ليبيا وانقسام الزعماء بين مؤيّد للرأي التركي ومعارض كان محمد خالد القرقني من المجموعة المؤيدة للصلح، وألقى السلاح وتفرغ لتجارته في طرابلس وحتى عندما اشتعلت الثورة من جديد سنة 1914 ـ 1915 وتساقطت الحاميات الإيطالية الواحدة تلو الأخرى أمام هجمات المجاهدين الموفقة، واستطاع المجاهدون أن يحصروا إيطاليا في ثلاثة مدن ساحلية، في منطقة طرابلس لم نجد للقرقني أثر في هذه المعارك، إذ كان يتاجر في المدينة التي يحتلها الطليان، بل وينتقل إلى روما وفق تجارته.

غير أننا نجده عام 1920 في مؤتمر غريان الذي انبثقت عنه (هيئة الإصلاح المركزية) وذلك عندما قرر المجاهدون إرسال وفد إلى روما لمقابلة الحزب الاشتراكي الإيطالي والحكومة الإيطالية مطالباً بالعودة إلى بنود صلح سواني بن يادم.

كان الوفد يتكون من الصادق بالحاج ونوري السعداوي ومحمد فرحات ومحمد خالد القرقني الذي كان بروما حيث انضم للوفد وعبد السلام البوصيري كمترجم للوفد.

وقد تشدد الإيطاليون في موضوع إطلاق سراح الأسرى الطليان قبل أي مفاوضات، إذ كانت هناك مجموعة من الأسرى الجنود والضباط أسرتهم حكومة مصراته.

وطلب وزير المستعمرات من الوفد مقابلتهم دون أن يعترف بهم ممثلين للشعب الليبي ورفض الوفد الليبي هذه المقابلة ما لم تكن اعترافاً بهم كممثلين للشعب الليبي وأصدر وزير المستعمرات بياناً جاء فيه:

«قد قابل وزير المستعمرات مندولا مبعوثي مؤتمر غريان ولمنع كل سوء تفاهم رد لهم ذلك، إذ إن المقابلة يجب أن تتم ـ حسب رأي الوفد ـ على أساس أنهم ممثلين للشعب هذا الجواب تحريراً:

أنتم يا محمد فرحات[1] ونوري السعداوي[2] وصادق بن الحاج[3] وخالد القرقني وعبد السلام البوصيري[4] قد طلبتم مني أن أقابلكم فأجبت إلى طلبكم بحسن الرضى وقد فتحتم كلامكم بالبيان

---

(1) محمد فرحات، مثقف خريج قانون من فرنسا، ساهم في الجهاد منذ اندلاعه، وهو من مدينة الزاوية.
(2) نوري السعداوي، هو أخ المجاهد بشير السعداوي وساهم في الجهاد.
(3) صادق بن الحاج، من مدينة طرابلس ومن أسرها المعروفة، ساهم في بدايات الجهاد وشارك في الوفد، ثم هاجر إلى مصر ومنها إلى تركيا.
(4) عبد السلام البوصيري، من أسرة البوصيري من غدامس، لم تكن له مساهمات في حمل السلاح، إذ كان صغيراً، هاجر إلى تركيا وعاد منها ليتقلد مسؤول الديوان الملكي أيام الملك إدريس.

أنكم أنابكم المجتمعون في غريان إلى الحكومة المركزية لأجل تبليغها تمنيات أهالي القطر الطرابلسي وزدتم أنكم قبل المباشرة في أي مذاكرة كانت تطلبون من الحكومة الاعتراف الرسمي بكونكم ممثلين للأكثرية العظمى من أهالي القطر الطرابلسي، فأجبت أنني لا يمكن أن آتيكم بهذا الاعتراف لسبب قانوني أصلي، وهو أن الحكومة الإيطالية لا يجوز لها أن تعترف بأحد بكونه ممثلاً مشروعاً للبلاد إلا مجلس نوابها المنتخبين وفقاً لمنطوق القوانين الجارية وبمراعاة الأصول التي تضمن إصدار إرادة الشعب الطرابلسي بحرية.

فبناءً عليه، التفحص الآن عن هل يكون اجتماع اختياري بين الأهالي ممثلاً للأكثرية في البلاد أم لا، هو أمر بلا فائدة وأيضاً غير ممكن، ثم بعد ذلك يلزم أن ألاحظ أن الحكومة إذا أتتكم بالاعتراف المطلوب تكون هي الأولى ناقصة لحرمة القانون الأساسي الذي تريد مراعاته كما هو واجب عليها، وحيث أنكم مع دعوتي المتكررة لكم لتبينوا تمنياتكم وأفكاركم على مصالح القطر الطرابلسي استمررتم على حل هذه المسألة قبل كل شيء وصرحتم أنكم لا تروا مناسبة في المداومة على الكلام إن تحصلوا على الاعتراف المذكور، بل تريدون الاعتزال على المذاكرة.

فبناءً عليه، لا يبقى لي بعد ذلك إلا أن أبيّن لكم ما في قلبي من التكدر على ما رجحتموه من التوقف على مسألة غير جوهرية ولا اخترتم المذاكرة معي بكل ثقة، فإني قد كنت مستعداً للإصغاء إلى كلامكم بكل رضا..».

ولقد صمم خالد القرقني وجماعته على عدم لقاء أي مسؤول إيطالي ما لم يعترف بهم ممثلين للشعب الطرابلسي، ومما زاد في حراجة موقفهم والتشدد في هذا الرأي أن المسؤولين الطليان في طرابلس أرسلوا وفداً آخر من الأشخاص الموالين لهم ليفسدوا مهمة الوفد.

وكان هذا الوفد يتكوَّن من:

حسونة باشا[1] ومصطفى بن قدارة[2] ومحمود عزيز[3] حميدة الزمرلي[4] وعلي بن شعبان[5] وعامر المعكف[6] ومحمد العاشق[7]، والشيخ أبو الأسعاد العالم[8] برفقة مترجم لبناني يدعى لاواجي، وادعى هذا الوفد أنه هو الممثل للشعب في القطر الطرابلسي وهو يؤيد إيطاليا، وهكذا تكون الخيانة دائماً هي التي تكسر ظهر المقاومة الوطنية.

---

(1) حسونة باشا: هو حسن القره مانلي آخر أفراد الأسرة القره مانلية، وكان عميداً لبلدية طرابلس وحاول الرجوع لإمارة طرابلس بالرغم من أنه (جاهل) لا يحسن القراءة أو الكتابة، وخاطبه الإيطاليون قبل احتلالهم لليبيا بأنهم متى استولوا على البلاد يمنحونه إمارة طرابلس، ولكنهم لم ساعدوه بالرغم من مساعدته لهم ومنحوه عميد بلدية طرابلس، وهو من أصل تركي.

(2) مصطفى بن قدارة، من الخمس.

(3) محمود عزيز، من زليطن وقف مع الإيطاليين وساعدهم وقاتل معهم في القرضابية وانسحب معهم.

(4) حميدة الزمرلي: من مدينة طرابلس و من أصل تركي.

(5) علي بن شعبان، من مدينة زوارة ساهم في الجهاد في مراحله الأولى ثم انضم للإيطاليين.

(6) عامر المعكف، من العجيلات انضم للإيطاليين بالرغم من أنهم سجنوه في إحدى الجزر سنة 1914 ثم أطلقوا سراحه وأصبح من المتعاونين معهم.

(7) محمد العاشق، من صرمان انضم للإيطاليين.

(8) الشيخ أبو الأسعاد العالم من منطقة سوق الجمعة وأصبح مفتي لطرابلس في فترة من الفترات، تعاون مع الطليان ووثقوا به.

لم تسفر مهمة الوفد عن شيء وارتحل أفراده متفرقين إذ سافر محمد خالد القرقني إلى موسكو لحضور المؤتمر الخاص بمناهضة الاستعمار في شهر يونيو 1921 إذ سبق له وأن سافر إلى موسكو عام 1917 وهنأ الروس بقيام الثورة البلشفية وهو أول عربي يقوم بمثل هذه المهمة لدى رجال الثورة الروسية، وربما يكون قد طلب من الزعيم الروسي لينين مناهضة الاستعمار الإيطالي لليبيا.

ومن روسيا توجه خالد القرقني إلى تونس حيث أن الإيطاليين استأنفوا المعارك ضد المجاهدين واستولوا على مناطق من الجبل الغربي بعد معارك الوخيم والجوش والسلامات 1922.

وصل خالد القرقني إلى يفرن حيث يقيم الشيخ سوف المحمودي وابنه عون سوف اللذان يشرفان على الجهاد في منطقة الجبل الغربي ويحاولان بمن معهما من المجاهدين صد الاندفاع الإيطالي على الجبل الغربي وباتجاه غريان مقر ميئة الإصلاح المركزية.

وكان في يفرن يقيم ايضاً قائداً للجيش النظامي عبد الله تمسكت وهو ضابط تركي تطوع للجها في ليبيا ورفض أوامر دولته في العودة إلى تركيا.

هاجم الإيطاليون يفرن واسـلوا على الموقع الذي يتواجد فيه خالد القرقني والصادق بالحاج واستلوا على معدات تخص الرجلين وعلم عون سوف بذلك وقام بهجوم مضد استطاع فيه أن يزحزح أنصار الطليان عن مواقعهم ويسترد المهمات[1].

(1) انظر مذكرات عون بن سوف، للمؤلف.

وارتحل خالد القرقني مع المجاهدين إلى غريان ثم إلى ترهونة وبني وليد واستقر مع المجاهد سعدون السويحلي في (السدادة) 1923 واشترك في الاجتماعات الأخيرة لهيئة الإصلاح المركزي، ومن السدادة انتقل خالد القرقني مع مجموعة كبيرة من المجاهدين إلى سرت منهم أحمد المريض ومحمد فرحات ومختار كعبار وعمر أبو دبوس حيث يتولى بشير السعداوي قائمقامية سرت.

ومن سرت انتقل خالد القرقني مع مجموعة من المجاهدين إلى جالوا ثم إلى الجغبوب ومنها إلى سيوه حيث دخلوا مصر وقد دخلوا الصحراء الكبرى واستشهد من استشهد منهم بالعطش وضاع من ضاع منهم في الطريق ونفقت حيواناتهم وخيولهم ووصلوا أخيراً في غاية الإجهاد إلى مصر.

ويقول الشيخ محمود المسراتي عن هذه المجموعة التي وصلت مصر أولاً:

«ما إن وصلوا إلى الحمام حتى طُوِّقوا وقُبض عليهم كمجرمين عاديين وطلبت إيطاليا تسليمهم إليها سواء من السلطات المصرية العادية أو من الملك فؤاد نفسه». ويستمر الشيخ محمود قائلاً:

«كان نفوذ إيطاليا لدى فؤاد او نفوذ إيطاليا في القصر قوياً على أقصى حد، فاتصلت السفارة بفؤاد وطلبت منه تسليم هؤلاء المجرمين العاديين - طبعاً السياسيون لا يسلمون - فألحقت بهم تهمة الإجرام العادي حتى تحصل عليهم من ملك مصر، وقامت ضجة في الشعب المصري وفي الصحافة المصرية وفي الليبيين النازحين هناك، كيف

يسلم سياسيين لإيطاليا تشنقهم وكان أول وزارة سعد باشا 1924 راحت الوفود إلى سعد زغلول باشا، وأخيراً بدل ما كنا ننتظر من هذه الاتصالات أن يسمح لهم بالبقاء أو السفر حتى لبلاد أخرى فظهرت لينا صحيفة الأهرام تقول: «مصادر عليا أو مقامات عليا قبلت تسليمهم».

وهنا أصدرت إيطاليا قانوناً خاصًا بمصادرة أملاك مجموعة قيادات الجهاد ومنهم خالد القرقني وكان ذلك بتاريخ 1925/1/25.

استطاع الصحفي عثمان القيزاني أن يخرج من مصر باتجاه تركيا، وكذلك بشير السعداوي ونوري السعداوي وخالد القرقني، الذي انتقل إلى الحجاز للتجارة، حيث التقى به الملك عبد العزيز - الذي عيّنه أحد مستشاريه - وكان في فترة حرجة في الجزيرة العربية حيث تشتعل المعارك لتوحيد الجزيرة وتأسيس المملكة الفتية الجديدة، ويتحدث كتاب (موسوعة تاريخ الملك عبد العزيز الدبلوماسي) في صفحة 528 عن خالد القرقني قائلاً:

خالد أبو الوليد القرقني:

مستشار الملك عبد الـزيز، مجاهد ليبي ضد الاستعمار الإيطالي، وبعد الاحتلال نفاه الإيطاليون إلى روما، وفيها درس علم الحقوق سنة 1920 م، وبعد عودته إلى وطنه طارده الإيطاليون، فهاجر إلى مصر عام 1924 ثم إلى اسطنبول. وأقام بها وحصل على الجنسية التركية، وفي عام 1929 وفد إلى الحجاز للاشتغال بالتجارة، فرآه الملك عبد العزيز وأعجب به وعيّنه مستشاراً لديه، وكان موضع تقديره وثقته، ومن المهمات التي كلّفه بها الملك عبدالعزيز:

● رأس وفداً إلى الإمام يحيى في اليمن عام 1352 هجري 1933 ميلادي لحل مشاكل الحدود وعقد معاهدة صداقة وحسن الجوار بين المملكة واليمن.

● مثَّل المملكة في زيارة لبولندة بناء على اتفاق عقد في جدة مع أحد مبعوثي بولندة الرسميين وهو الكونت رازينسكي ومفتي الجالية الإسلامية في بولندة لشراء الأسلحة التي وصلت جدة.

● رأس بعثة دبلوماسية إلى ألمانيا وقابل هتلر، ومثَّل المملكة في محادثاتها مع ألمانيا سنة 1939.

● كان حلقة الوصل بين الملك عبد العزيز والحاج أمين الحسيني مفتي فلسطين وقائد المجاهدين فيها.

● وبعد وفاة الملك عبد العزيز عاد إلى طرابلس الغرب واعتزل العمل حتى توفي رحمه الله في رجب عام 1391 هجري 1971 ميلادي.

ويقول الأستاذ الدكتور فهد بن عبد الله السماري في كتابه الملك عبد العزيز وألمانيا في صفحة 37 في الهامش:

«خالد الهود: وكان يسمى أيضاً القرقني و«أبو الوليد» واسمه الكامل هو خالد بن أحمد بن عياد آل هود.. هاجر مع أحد أجداده من اليمن إلى تونس حيث عاش فيها إلى أن نفي مع جده إلى جزيرة قرقنة في البحر الأبيض المتوسط، ومنها انتقل إلى ليبيا واشتهر باسم القرقني إشارة إلى جزيرة قرقنة التي وفد منها، وحتى لا يكتشف أمره (حسب إفادة زوجته التي تعيش الآن في ليبيا) ناضل ضد الإيطاليين ونفي إلى القاهرة وكان (حافظ وهبة) وهو الذي جذب اهتمام عبد العزيز إليه وقد

عيّن الهود في عام 1349 هـ 1930 م مساعداً أول لنائب الملك، ثم شغل وظيفة مستشار سياسي، كان يتحدث الفرنسية والإيطالية والتركية».

غير أننا نجد في مجلة الإخاء الليبية مقالاً للكاتب الباحث أمحمد محمد الطوير يشمل صورة لجد خالد يسمى علي القرقني وقد انتخب شيخاً لمدينة طرابلس.

وربما يكون قدومه من اليمن في تاريخ قديم ولا غرابة في أن أغلب سكان شمال أفريقيا قادمون في أصولهم البعيدة من الجزيرة العربية.

وخالد القرقني زوج إحدى بناته بالأستاذ عبد الرحمٰن عزام أول أمين عام للجامعة العربية والتي تزوجت ابنته بأحد أمراء آل سعود وتركت أحفاداً هم الآن يعتبرون خالد القرقني جدهم من ناحية الأم.

كما يذكر الدكتور فهد السماري الدور الذي لعبه خالد القرقني في الاتصال بألمانيا وشراء الأسلحة منها للمملكة العربية السعودية بالرغم من الحظر المفروض على ألمانيا بعد الحرب العالمية الأولى.

يقول السماري عن القنصل الألماني الذي وافقت السعودية على تعيينه في 21 مارس 1921 والمدعو (دي هاس).

يقول: ودخل دي هاس شريكاً في إدارة بعض الأعمال مع أحد مستشاري الملك عبد العزيز وهو خالد الهود لاستيراد البضائع الألمانية ونتيجة للمركز الرسمي الذي كان يشغله دي هاس في جدة فقد كانت شركته تقوم بتمثيل معظم المصالح الألمانية هناك[1].

---

(1) الدكتور فهد السماري، ص 65.

ويقول السماري:

«وفي عام 1351 هجري 1932 م طلب الملك عبد العزيز مزيداً من الأسلحة من المصدر نفسه، وبعد رحيل دي هاس القنصل الألماني في جدة عام 1352 هجري 1933 م قام «خالد الهود» شريكه السابق بأداء الدور الذي كان يقوم به في تيسير الاتصالات بين الحكومة السعودية والشركات الألمانية، ونتج عن ذلك الجهود تلقي المملكة في عام 1353 هجري 1934 م شحنة تضم 6000 ستة آلاف بندقية وثلاث حقائب تضم بنادق آلية»[1].

ويستمر الدكتور السماري قائلاً:

«وفي عام 1356 هجري 1937 تسلّمت الحكومة السعودية شحنة أخرى من الأسلحة من مصدر ألماني، وكان (الهود) قد رتب لوصول هذه الصفقة. ولقد استغلت هذه الأسلحة على الفور مع غيرها من الشحنات التي وصلت من بريطانيا وإيطاليا في السنة نفسها في المواقع الحربية الخمسة الجديدة التي تم إقامتها على الحدود الشمالية على أنها محاولة لتأمين البلاد من أي عدوان محتمل». ويتحدث الدكتور السماري عن مهمة قام بها خالد القرقني إلى ألمانيا رسمياً مبعوثاً من الملك عبد العزيز يقول:

«لذا قرر الملك عبد العزيز البدء في الاتصالات الرسمية مع برلين وأرسل مستشاره السياسي (خالد الهود) إلى ألمانيا في عام 1357 هجري 1938 م للتفاوض مع الحكومة الألمانية بشأن الحصول على

(1) الدكتور فهد السماري، المصدر السابق، ص 137.

الأسلحة، وقد تم استقبال (الهود) بواسطة مسؤولين من مكتب حزب العمال الاشتراكي الوطني الذين أبدوا استعدادهم لرعاية المطالب السعودية وكان (الهود) متفائلاً واعتقد بأن مهمته سوف تنجح مع المكتب أفضل من اتصالاته السابقة مع وزارة الخارجية الألمانية التي كانت قد انتهت بالفشل وعرضت مطالب عبد العزيز ورغباته أولاً على المسؤولين في مكتب حزب العمال الاشتراكي الوطني التي تمثلت فيما يلي:

1 ـ الأسلحة حوالي (8000) بندقية مع الذخيرة ومصنع للذخيرة.

2 ـ إقامة تبادل تجاري منتظم للسلع بين البلدين بذات الدرجة من القوة التي يتم بها التبادل بين ألمانيا وكل من إيران وأفغانستان.

3 ـ منح المملكة العربية السعودية قرضاً ائتمانياً مدته سبع سنوات لتمويل تبادل التجارة وصفقات الأسلحة.

4 ـ تقديم مساعدة مالية لتنمية المواد الخام السعودية مثل الصوف وجلود الحيوان (الفراء).

5 ـ إقامة تمثيل دبلوماسي ألماني في المملكة العربية السعودية.

ويقول:

«كما زار (الهود) مقر شركة الحديد والصلب حيث ناقش مع المسؤولين هناك المتطلبات الاقتصادية والحربية التي كانت تضم السلاح وتأسيس مصنع للذخيرة في المملكة..»[1].

---

(1) المصدر السابق، ص 146.

ويقول السماري: «وفي 12 جمادى الآخرة 1357 هـ 9 اغسطس 1938 م قامت شركة الحديد والصلب بإرسال خطاب إلى (الهود) في المملكة مع تقديرات للمشروعات التي تمت مناقشتها في برلين، وقدمت الشركة اقتراحاً بتزويد المملكة العربية السعودية بـ 8000 قطعة بندقية (ماوزر) مع 1000 طلقة من الذخيرة لكل بندقية مع مصنع للطلقات بقدرة إنتاجية من 10000 إلى 20000 طلقة يومياً، وتضمن العرض قرضاً ائتمانياً مدته من عامين إلى عامين ونصف مع الدفع النقدي».

ولقد وافقت الحكومة السعودية على الصفقة بعد تعديل بعض الملاحظات غير أن الحكومة الألمانية رفضت الصفقة، وذلك لكي تمنع مكتب حزب العمال الاشتراكي الوطني من التدخل في مجال الشؤون الخارجية الألمانية.

غير أنها وافقت على إقامة العلاقات الدبلوماسية وعيّنت سفيرها في العراق ممثلاً لها في السعودية.

وحاول الملك عبد العزيز إرسال وفود أخرى لهذه الغاية ولكن خالد القرقني يبقى الأكثر قرباً من العلاقات السعودية الألمانية ويقول السماري: «كما أن الملك عبد العزيز كان يجد في واحد من أقرب مستشاريه وهو خالد الهود تشجيعاً باتصالاته التجارية مع الألمان، وقد تم تفويض الهود في شراء الأسلحة ومواد أخرى من ألمانيا نيابة عن الحكومة السعودية بسبب علاقاته الجيدة مع الألماني»[1].

(1) المصدر السابق، ص 100.

واستمرت المباحثات بين الدولتين والمراسلات وأصبح خالد القرقني يمثل عدة شركات ألمانية وعلى استعداد لمواصلة الاتصالات لتسهيل مهمة شراء الأسلحة التي كان الملك عبد العزيز يوليها الأهمية المطلقة نظراً للظروف الخاصة للمملكة.

فها هو مرة أخرى يحمله رسالة إلى هتلر في ألمانيا ويقول السماري: «وأخبر الملك عبد العزيز (جروبا) (السفير الألماني في جدة) بأنه قرر إرسال خالد الهود إلى برلين وطلب إليه مساعدته في رحلته، وكانت تلك البعثة مختلفة عن البعثات التي سبقتها، لأنه يحمل خطاباً إلى هتلر وتركزت مهمة البعثة السعودية في الاتصال بوزير الخارجية وبرئيس الوزراء في شأن طلب الترخيص بتسليم المواد الحربية إلى المملكة العربية السعودية ومن الممكن أن يكون (جروبا) وراء ذلك التوجيه للبعثة السعودية حيث كان يعتقد أن صفقة الأسلحة السعودية يمكن أن تتم الموافقة عليها إذا ما تم الاتصال مباشرة بهتلر وروبنتروب»[1].

لقد توجه خالد القرقني إلى برلين في شهر ربيع الأول 1358 هـ الموافق مايو 1939 م حيث قابل وزير الخارجية.

وفي يوم 22 ربيع الآخر 1358 هـ 17 يونيو 1939 م تم اللقاء بين الهود وهتلر ودامت المباحثات عدة ساعات تناولت التاريخ العربي والإسلامي وتاريخ ألمانيا وكان خالد القرقني محدثاً لبقاً يعرف تاريخ أمته وكان الحديث باللغة الفرنسية التي يتقنها خالد، وأخيراً وافق هتلر على العرض بعد أن أخبر خالد أنه معجب بالملك عبد العزيز.

---

(1) المصدر السابق، ص 179 ـ 180.

ويقول الأستاذ حسن خشيم في مجلة الإخاء:

«كما يعتبر خالد القرقني أول عربي ليبي يقابل الزعيم الألماني أدولف هتلر ويجتمع به لمدة ثلاث ساعات قدم له خلالها الفوهرر بندقية من الفضة الخالصة تعبيراً عن إعجابه بأسلوبه وثقافته الواسعة..»[1].

ويقول الأستاذ الدكتور السماري:

«وأخيراً، وبعد المقابلة التي أجراها مع هتلر قررت الحكومة الألمانية أن تقدم قرضاً ائتمانياً قدره (1,5) مليون ونصف المليون مارك ألماني لتسهيل تأمين 8000 بندقية (ماوزر) و8 ملايين طلقة من الذخيرة ومصنع صغير للذخيرة» وقد زادت ألمانيا قرضها حيث وصل إلى ستة ملايين مارك فيما بعد وأن هدية تقدر بـ4000 بندقية مع 2000 طلقة تقدمها ألمانيا للسعودية.

وهكذا نجح خالد القرقني في مفاوضاته بالرغم من الحملة الكبيرة الإعلامية التي صادفت وجوده في ألمانيا من قبل الإيطاليين والصحف الألمانية وعندما تباطأ الألمان في تسليم الأسلحة أرسل الملك عبد العزيز مستشاره خالد القرقني مرة أخرى حيث استطاع أن يوفق في الاتفاق على عقد مع شركة الحديد والصلب في 4 رجب 1358 هـ 19 أغسطس 1939 م بتقديم 10000 بندقية ماوزر مع 10000000 عشرة ملايين طلقة من الذخيرة مقابل قيمة تصل إلى حوالي 120000 جنيه معلقاً على موافقة الملك عبد العزيز، وأرسلت

(1) مجلة الإخاء، ص 76. السماري، المصدر السابق، ص 188.

الحكـومة السعودية موافقتها على الفور وأخذت تترقب نقل الأسلحة إلى جدة.

ولكن قيام الحرب العالمية الثانية حال دون تقديم الأسلحة وغادر خالد القرقني ألمانيا دون أن يتمكن من توريد الأسلحة إلى المملكة.

ولقد أثارت زيارة خالد القرقني إلى ألمانيا الكثير من التساؤلات والشكوك لدى الأمريكيين والإنجليز وأجروا اتصالات على مستوى عال مع المملكة للاستفسار عن نتائجها.

ولعلّه من المفيد أن نورد هنا نص الرسالة التي حملها خالد القرقني إلى الفوهرر من الملك عبد العزيز بن سعود.

بسم الله الرحمٰن الرحيم

من عبد العزيز عبد الرحمٰن الفيصل آل سعود إلى حضرة صاحب الفخامة مستشار الريخ الألماني أدولف هتلر.

يا صاحب الفخامة

لقد كان من دواعي سرورنا أن نستقبل مندوب فخامتكم فوق العادة ووزيركم المفوض في بلادنا الدكتور فريتز غروبا تأييداً للعلاقات الوديّة بين مملكتنا وبين الريخ الألماني، وإنا نعرب لفخامة المستشار عن شكرنا لكتابه الرقيق الذي حمله سعادة الدكتور إلينا، ونحب أن تتأكدوا فخامتكم أنه من أعز أمانينا أن نجد علائق الود والصداقة تنمو إلى أقصى حد مع حكومة الريخ الألماني وأن كتابنا هذا الذي نبعث به مع مستشارنا خالد أبو الوليد آل هود نرجو أن يكون من العوامل القوية لتأييد روابط تلك الصداقة التي نسعى إليها مع فخامتكم ومع بلاد الريخ

الألماني العظيم وسيؤكد لفخامتكم مستشارنا هذه الرغبة الصادقة التي نعتقد أنها ستساعد إلى حد عظيم على إنجاز مهمته التي أرسلناه من أجلها إلى بلاد الريخ الألماني لتأييد تلك الصداقة ولإنجاز بعض أبحاث وشؤون اقتصادية كان قد جرى البحث فيها مع مندوب فخامتكم في بلادنا، وإنا لواثقون من أن المذكور سيلقى من فخامتكم كل معاونة في تسهيل مهمته.

ونحن ننتهز هذه الفرصة لنؤكد لفخامتكم صداقتنا التامة، ونتمنى لفخامتكم وللريخ الألماني الصديق كل تقدم وهناء.

كتب بقصرنا بالرياض في اليوم السادس من شهر صفر سنة ثمان وخمسين بعد الثلاثمائة والألف الموافق 27 مارس 1939[1].

التوقيع

عبد العزيز آل سعود

أما الصحفي العربي في إذاعة (برلين) (هنا برلين حي العرب) يونس بحري، فيورد زيارة خالد القرقني إلى ألمانيا بقوله تحت عنوان (ابن سعود وهتلر):

«وأدخلوني على الفوهرر لأول مرة بعد وصولي إلى ألمانيا، وكان ذلك في العاشر من حزيران 1939 ووقفت أمام الرجل الذي دوخ العالم وبهرت شهرته الدنيا بأسرها وكنت أعرفه منذ سنة 1930 وبحركة لا إرادية رفعت يدي محيياً:

(1) الرسالة مصورة في كتاب الملك عبد العزيز وألمانيا، للدكتور فهد بن عبد العزيز السماري، ص 245 في قسم الملاحق.

هايل هتلر.

ورد هتلر بنفسه: هايل هتلر!

ومد يده لمصافحتي.

وقال هتلر: إن ابن سعود قد أرسل إليه وفداً يرأسه السيد خالد آل هود (القرقني) لمفاوضته في بعض المسائل الخطيرة، فهل تعرف من هو السيد خالد آل هود؟ إنني معجب كل الإعجاب بالملك عبد العزيز بن سعود فهو رجل عصامي خلق في الصحراء مملكة ووحد القبائل والإمارات والمشيخات الصغيرة، إنه رجل يستحق كل احترامي!!

فقلت الحق إن الملك عبد العزيز كما وصفتم يا أيها الفوهرر وأنا أعرفه قبل أن يحتل الحجاز سنة 1925 إذ زرته في الرياض عاصمة سلطنة نجد في ذلك الحين.

أما رئيس الوفد السعودي العربي السيد خالد آل هود فهو من مجاهدي ليبيا وهو كبير المستشارين للملك بن سعود ورجل له صفات الديبلوماسي البارع.

والتفت الزعيم هتلر نحو الغراف الكونت فون روبنتروب وزير خارجية الرايخ الألماني ـ وهو يفرك يديه ابتهاجاً ـ أسمعت يجب أن يكون استقبال سفير الملك العربي الكبير مناسباً للمقام..».

وكان الأمر كما قال هتلر، فقد دامت الزيارة الأولى للوفد السعودي إلى هتلر ثلاث ساعات!!.

ثم استقبله مرة ثانية في مقر الزعيم في (برخشغادين) «وكر النسر» في جبال ساليسبورغ النمساوية»[1].

وفي صفحة أخرى من كتاب يونس بحري يشير إلى هذه الزيارة قائلاً:

«ولما جاء الوفد السعودي برئاسة السيد أبو الوليد خالد آل هود «القرقني» إلى ألمانيا لزيارة هتلر ومفاوضته في شأن تسليح المملكة العربية السعودية في شهر أغسطس 1939 عيَّن الكونت فون روبنتروب وزير خارجية الرايخ، البارون فون هنتيك ليكون مرافقاً للوفد السعودي، ومنذ ذلك الحين توطدت أواصر الصداقة بين السيد خالد القرقني مستشار الملك السعودي وبين فون هنتيك العنيف في صداقته وفي عداوته..»[2].

وهكذا استمر خالد القرقني في خدمة المملكة العربية السعودية بكل تفانٍ وإخلاص إلى أن توفي الملك عبد العزيز رحمه الله وتولى ابنه سعود بن عبد العزيز حينها آثر خالد القرقني العودة إلى وطنه حيث استقبله مواطنوه بكل حفاوة وتقدير وفي منطقة (عين زارة) تلك التي شهدت معركة عين زارة ضد الطليان عام 1911 م اشترى مزرعة كبيرة وشيد بجانبها مسجداً عرف باسمه.

وفي شهر رجب عام 1391 هـ 1971 م توفي عليه رحمة الله

---

(1) هنا برلين حي العرب، الجزء الأول، يونس بحري، ص 32.

(2) يونس بحري، المصدر السابق، ص 117. ومن المعلوم أن (فون هنتيك) هذا أصبح مستشار للملك عبد العزيز بن سعود في الاقتصاد السياسي فيما بعد.

وترك خمسة بنات إحداهن زوجة عبد الرحمٰن عزام، كما ترك ولداً واحداً هو الوليد الذي كان يسمى باسمه (أبو الوليد).

وقد حاز في حياته ونظير خدماته المتفانية لأمته العربية والإسلامية العديد من الأوسمة من البلدان التالية:

وسام من تركيا ومن إيران ومن تونس ومن السعودية ووسام الجمهورية من الرئيس جمال عبد الناصر.

والتقيت بالسيد زيد والي الفارسي الذي كان يرافق خالد القرقني لأكثر من خمسين سنة، وانتقل معه إلى ليبيا حيث عاش معه ثلاثين سنة هناك، وأخبرني عن دماثة أخلاقه ولين عريكته وطيب معشره عليه رحمة الله.

وقد زوج السيد زيد والي الفارسي أولاده من أسر ليبية وهو يعيش الآن بمدينة الرياض.

لا تنسى ذكر الله

لا تنسى ذكر الله

لا تنسى ذكر الله

لا تنسى ذكر الله

محمد نوري السعداوي

هو الأخ الأكبر للمجاهد بشير السعداوي، وكان مولده في أواخر السبعينات من القرن التاسع عشر أي حوالي 1878 إذ إنه يكبر بشير السعداوي، وبينهما أخ آخر هو أحمد، ولقد تولى نوري رعاية إخوته بعد وفاة والده رحمه الله إبراهيم السعداوي.

تلقى نوري تعليمه في الخمس، ولم نعثر على تفاصيل تعليمه، غير أننا نجده يعين (مدير مال) في منطقة سرت، وذلك عام 1315 هـ الموافق عام 1897، الأمر الذي جعل من أخيه بشير ينتقل إلى سرت للدراسة في كنف أخيه نوري، وكان قائمقام سرت في ذلك الزمن (عمر المنتصر) وهو من مصراته، وكان يعتبر منطقة سرت ملكه الخاص يعيث فيها فساداً كما يشاء ويجمع الضرائب كما يريد لا يمنعه مانع ولا يتدخل في شؤونه أحد.

وفي إحدى الليالي بعد وصول نوري السعداوي إلى سرت أرسل القائمقام في طلبه، ولما وصل إليه عرض عليه مضبطة كتبها ابنه أحمد ضياء الدين معنونة باسم عزت باشا العابد السكرتير الثاني للسلطان العثماني «وذلك ضد قائد المفرزة العثمانية في سرت اليوزباشي غالب أفندي[1] واتهامه بأنه يتبع جمعية (تركيا الفتاة)،

---

(1) غالب أفندي، هو غالب الكيب من مواطني ليبيا ومن منطقة العلالقة صبراته، =

ولاحظ نوري السعداوي أن هذه العريضة ممهورة بأختام أعضاء مجلس الإدارة الأربعة الذين ذكرنا أن عمر المنتصر يحتفظ بأختامهم ليستخدمها فيما يشاء دون حاجة للرجوع إلى أصحابها، ولما كان نوري السعداوي لا يدري شيئاً عن هذا الاتهام ـ وقد كان اتهاماً خطيراً حقاً ـ لأن أعضاء (تركيا الفتاة) متهمون بالتآمر على نظام الحكم لقلبه وإعلان الدستور في الدولة، فقد طلب نوري أن يوقع على هذه العريضة القاضي الشرعي أولاً التو والساعة ولكنه امتنع عن التوقيع لجهله بالمسألة وامتنع نوري السعداوي عن التوقيع كذلك وبطل إرسال المضبطة . . »[1].

ولم يصلنا، إذ كان نوري السعداوي قد استمر في وظيفته أو انتقل إلى غيرها حتى نجده يحتفل بإعلان الدستور العثماني وهو في مدينة الخمس مع أخيه بشير ويقوم خطيباً في المواطنين محبذاً الدستور وداعياً إليه، في الوقت الذي ألقى أخاه بشير قصيدة شعرية.

كما رغب نوري في ترشيح نفسه نائباً في البرلمان المزمع انتخابه في ظل الدستور الجديد، ولكن عمه الصادق السعداوي تدخل ليمنعه من الترشيح، وذلك بسبب النفور الذي وقع للمواطنين من جمعية (تركيا الفتاة) والتي يصفونها بالإلحاد.

وقد وقف نوري موقفاً موفقاً من دفع الشبهة عن أخيه بشير في تأسيس جمعية عربية غرضها الإصلاح الإداري كانت شبه سرية ويجتمع بخصوصها مجموعة من أصدقاء بشير، ولما سأل المتصرف نوري عن

= ساهم في الجهاد الليبي ضد الطليان ثم هاجر إلى تونس عام 1924 م، ولم يرجع منها إلا بعد خروج الطليان من ليبيا فرجع إلى بلاده.

(1) محمد فؤاد شكري، ليبيا الحديثة، المصدر السابق، ص 397.

هذه الجمعية التي علم بها استطاع أن يقنعه ببطلان هذا الاتهام وفي الحقيقة كانت الجمعية موجودة ولكن نوري لا يعلم عنها شيئاً.

الجهاد ضد إيطاليا

ما أن بدأت إيطاليا تعد لاحتلال ليبيا حتى شعر المواطنون بهذا التحرك وبدأوا في الاجتماعات والاستعداد للحرب.

وكان بشير السعداوي وأخوه نوري السعداوي في الخمس ينسقان مع متصرف الخمس ليعرقلوا نشاط البعثات التجسسية التي ترسلها إيطاليا لسبر أغوار الوطن ومواطنيه.

وقد قرر أهالي المنطقة أن يعقدوا مؤتمراً ليتدارسوا التدابير التي يقومون بها عند حدوث الغزو، فاجتمع مندوبون من كل الأقضية التابعة للواء الخمس وانتخبت مصراته نوري السعداوي وحضر عن سرت محمد المحمودي رئيس بلديتها ومن زليطن رئيس بلديتها عمر بن قدارة واختارت الخمس لتمثيلها الشيخ عبد السلام بن يونس وإبراهيم بن خليفة ومحمد الترجمان وعن مسلاتة حضر الحاج فرحات القاضي ومفتاح التريكي والشيخ السنوسي بن صالح وعن سيلين الصادق بن هنيدي وعن تاورغاء بشير السعداوي[1].

واجتمع المؤتمر في ساحة الخمس وألقى مجموعة من المجتمعين خطباً مهمّة وأصدروا عدة قرارات أهمها:

- منع كل معاملة مع بنكو دي روما[2].

---

(1) محمد فؤاد شكري، المصدر السابق، ص 429.

(2) بنكو دي روما: مصرف أسسته إيطاليا في طرابلس للتمهيد للاحتلال، إذ يقوم بشراء الأراضي ومنح القروض وشراء الذمم.

- منع بيع الأراضي أو الاقتراض من هذا المصرف.
- مقاطعة السفينة التي تأتي للميناء كل شهر تابعة للمصرف، وطالبوا الحكومة بمنعها.
- طالبوا الدولة باستصدار قانون لتجنيد الطرابلسيين بكل سعة واستبقاء الأسلحة بيد الوطنيين.
- طالبوا بأن يأتي بريد الاستانة على ظهر باخرة عثمانية بدلاً من الباخرة الإيطالية.
- طالبوا من المواطنين مقاطعة المدارس الإيطالية.

وقد أبرق المؤتمرون بهذه التوصيات للصحف في مختلف بقاع العالم وخاصة الأوروبية، ولكن إيطاليا لم تمهل المواطنين لاستكمال استعداداتهم فقامت بالهجوم على المدن الساحلية في أكتوبر 1911 وأمطرت السواحل بمدافع بوارجها البحرية بعد الإنذار الذي قدمته للحكومة العثمانية في 26 سبتمبر 1911.

ولقد أسرع أهالي الخمس لتنظيم أنفسهم وتم تعيين بشير السعداوي رئيساً للمجاهدين، وسارع نوري السعداوي لتجميع المجاهدين حيث انتقل مع عبد الرحمٰن الزقلعي إلى مسلاتة.

وأنذرت إيطاليا أهالي الخمس طالبة منهم التسليم وأمطرتهم بوابل من قذائفها إلا أنهم بادلوها بالمثل، وأبرقوا للباب العالي العثماني بأنهم لن يفرطوا في وطنهم وسيقاتلون إلى آخر قطرة دم منهم.

كما ذهب نوري السعداوي على رأس وفد يتكوَّن من فرحات القاضي وفرج بن إبراهيم ومحمد عامر ومعهم فائق امسيك

الغرياني[1] من ضباط الجيش للاستنجاد بأولاد سليمان وشيخهم سيف النصر المقيمين بالجفرة والذي لم يوافق على الانضمام معهم في الجهاد لعداوته مع الأتراك حسب قوله وكانت المعركة مستمرة في الخمس وحول (المرقب) قرابة السنة لم يستطع الإيطاليون احتلال الموقع أمام قوة دفاع المجاهدين.

ولما وصل بشير السعداوي إلى مصراته وجد المعركة محتدمة فيها حيث اشترك فيها مع أخيه أحمد وها هو يخاطب أخاه نوري الذي بقي بالخمس مدافعاً عنها برسالة يشرح له فيها الصعاب التي لاقاها في الدفاع عن مصراته وتاريخها 26 يونيه 1912.

وما أن وقَّع الأتراك الصلح مع الإيطاليين في معاهدة (أوشي) (لوزان) في 15 ـ 18 أكتوبر 1912 حتى تقرر اجتماع لقيادات المجاهدين في العزيزية وقد اختير لتمثيل الخمس كل من الحاج مفتاح التريكي (مسلاتة) وحامد القاضي (مسلاتة) ومحمد الترجمان وأحمد بن سنان من (الخمس) ونوري السعداوي.

وصل الوفد إلى العزيزية حيث اجتمعوا مع قيادات الجهاد الطرابلسي ومع نشأت بك القائد التركي الذي أكَّد لهم صحة خبر الاتفاق، وأوضح لهم أن السبب هو ثورة البلقان، وكما سبق أن ذكرنا في مسيرة بشير السعداوي، انقسم المجاهدون إلى قسمين؛ قسم ضد الدولة العثمانية أراد مواصلة الجهاد بدون الأتراك، وقسم أراد التسليم

---

(1) فائق امسيك الغرياني، من الضباط الليبيين في الجيش التركي، استشهد في معركة المرقب، عليه رحمة الله، كما استشهد جد العقيد القذافي فيها. انظر فؤاد شكري، المصدر ص 432 ـ 433.

حسب الاتفاق التركي، وشكل القسم الأخير وفداً لمقابلة الوالي الإيطالي للتفاوض معه في موضوع الفرمان السلطاني ومرسوم ملك إيطاليا.

وكان الوفد المقترح من فرحات الزاوي والهادي كعبار والصغير المريض وعبد الرزاق البشتي ونوري السعداوي، غير أن نوري رفض الذهاب إلى طرابلس.

أما مجموعة مواصلة الجهاد والتي يرأسها الشيخ سليمان الباروني فلقد اجتمع معها نوري السعداوي وجماعته وطلبوا منهم استمرار الإمدادات من الأرزاق والمال وأن يجهز لهم إبلاً لحمل العائلات بعيداً عن مرمى المدافع، ولما كان الباروني لا يملك شيئاً مما طلب نوري وجماعته رجعت مجموعة الخمس إلى بلدانها واستمر الباروني في القتال مع مجموعة الغرب.

قرَّر نوري السعداوي وأخوه بشير السعداوي الهجرة إلى تركيا برفقة الضباط الأتراك، وفي نوفمبر 1912 غادرت الباخرة ميناء الخمس تحمل نوري السعداوي وأسرته وأخاه بشير وأسرته مع مجموعة من الضباط والجنود الأتراك وعشرات من أسر الموظفين الليبيين.

الوصول إلى الشام

وصلت الباخرة إلى ميناء حيفا ونزلت المجموعة حيث تمَّ ترتيب استقبال العائلات بالتنسيق مع قائمقام حيفا، ولم يطل المقام بنوري السعداوي الذي انتقل إلى دمشق مع خليل بك متصرف الخمس، ولما لحق بشير إلى دمشق طلب منه نوري أن يذهب إلى اسطنبول للاطلاع على رأي الدولة في المسألة الليبية.

وبعد أن اطمأن بشير على إقامة أسرته في دمشق لحق بأخيه بشير إلى اسطنبول حيث قابل مع بشير أنور باشا وهو الرجل الذي عرفوه عند تواجده بليبيا وقد شهد بشير وأخوه نوري أحداث الانقلاب في اسطنبول الذي قام به أنور باشا ومجموعته.

ولقد تمَّ تعيِّين نوري السعداوي موظفاً (بالمحاسبة الخصوصية) ببيروت وبشير السعداوي (مديراً للتحريرات) أو وكيل متصرف في (ريزة) وذلك قبل أغسطس 1913، وهكذا استقر نوري في بيروت وأحضر العائلات إلى لبنان وشرع يزاول وظيفته.

ولكن بشير في (ريزة) وقعت له أحداث ذكرناها في سيرته وأخذ إجازة وصل فيها إلى بيروت حيث يشتغل نوري وتقيم العائلة.

الحرب العالمية الأولى

اشتعلت الحرب العالمية الأولى، وحاول الأتراك التأثير على بشير السعداوي للذهاب إلى ليبيا لمواصلة الجهاد، ولكنه رفض لأنهم طلبوا منه إعلان الحرب على الإنجليز والفرنسيين، وهذا ما لا طاقة للشعب الليبي به مع حربه المستمرة مع الطليان، فتم تعيينه قائمقام في (ينبع البحر) ثم قائمقام في (جزين) بجبل لبنان حيث يتواجد أخوه نوري السعداوي والأسرة، ولكن هذه الوظيفة لم تدم، إذ استولى الفرنسيون على دمشق والإنجليز على فلسطين.

وفي يوليه 1920 قرر نوري السعداوي وأخوه بشير العودة إلى الوطن لمواصلة الجهاد.

مواصلة الجهاد في طرابلس الغرب

وصلت بشير السعداوي وأخاه نوري مجموعة من الرسائل من مواطنيهما في ليبيا يطلبون فيها عودتهما إلى الوطن لمواصلة الجهاد والعمل على لم شمل المجاهدين، فلقد استطاع الإيطاليون بث الفرقة بين بعض قيادات الجهاد.

ويقول الدكتور محمد فؤاد شكري:

«وكانت أكبر حجج هؤلاء لإقناعهما بذلك أن بلاد الشام قد صار يحتلها المستعمرون الآن، فالسعداوي وأخوه يقيمان الآن في بلاد محتلة، ولذلك يتساوى استمرارهما في سوريا مع عودتهما للعيش في وطنهما فكلا البلدين يحتلهما الأجنبي، ولكن وجودهما في طرابلس الغرب سوف يمكنهما، ولا شك من خدمة وطنهما الذي كادت تمزقه النزاعات الداخلية بين الزعماء المحليين..».

وصول نوري السعداوي إلى طرابلس

وصل نوري السعداوي وأخوه بشير السعداوي طرابلس في سبتمبر 1920 وكانت طريق رحلتهما من بيروت عن طريق الإسكندرية، وفي الباخرة علما بمقتل رمضان السويحلي من أحد الركاب، وبقيا في طرابلس قرابة الأسبوع ثم استأنفا رحلتهما إلى الخمس.

انغمس نوري وأخوه بشير في محاولة لترقيع شرك المنطقة وساهم مع بشير في الصلح بين مسلاته ومصراته وبين مصراته وزليطن وبين عائلة سيف النصر وحكومة مصراته.

كما حضر نوري مؤتمر غريان الذي عقدته قيادات الجهاد في

أغسطس 1920 والذي انبثقت عنه (هيئة الإصلاح المركزية) وأرسلت وفداً إلى روما لمقابلة وزير المستعمرات طالبة تطبيق اتفاق (صلح سواني بن يادم) الذي أبرم عام 1919 بين قيادات الجهاد الطرابلسي والإيطاليين.

كان الوفد كما في سيرة القرقني يتشكل من نوري السعداوي وخالد القرقني وصادق بن الحاج وعبد السلام البوصيري ولم يستطع الوفد أن يحقق شيئاً، فعاد فرادى إلى الوطن ووجدوا بذور الفتنة تندلع في الوطن بين المواطنين في الجبل الغربي، وبشير السعداوي يبذل قصارى جهده في إطفائها، ورأى زعماء المنطقة أن يرسلوا وفداً إلى الأمير إدريس السنوسي في برقة، فتشكل الوفد من نوري السعداوي وأحمد السويحلي وعمر بودبوس والشتيوي بن سالم والصويعي الخيتوني وصالح بن سلطان وكان معهم عبد الرحمٰن عزام.

وكان الوفد من أولويات مهامه تسوية الخلافات بين القبائل في المنطقة الوسطى وتم الاجتماع في سرت مع وفد أرسله الأمير إدريس السنوسي واتفقوا على مساعدة بعضهما البعض في حرب الطليان.

وعند عودة الوفد إلى مصراته وجدوا أن العدوّ قد احتلها، فاشتركوا في القتال واستطاعوا زحزحة العدوّ، واسترجعوها وطلب الإيطاليون هدنة للمذاكرة وتبادل الرأي ولبى المجاهدون طلب الطليان وعقد اجتماع (فندق الشريف) بين المجموعتين ولم يحضر نوري السعداوي هذا الاجتماع من جانب المجاهدين إذ بقي ينظم الأمور في مصراته.

غير أن العدو هاجم مصراته وانتظم المجاهدون تحت قيادة المجاهد الشجاع سعدون السويحلي وخاضوا معركة مشرفة استشهد فيها مجموعة من المجاهدين وعلى رأسهم المجاهد الكبير عبد العاطي الجرم، وانسحب المجاهدون من مصراته إلى (نفد) حيث شكلوا حكومة السدادة.

وانتقل نوري السعداوي لاحقاً بأخيه بشير في سرت، ولكن البقاء لم يدم طويلاً، فلقد تغلب الإيطاليون على مقاومة المجاهدين في ترهونة وبني وليد وحكومة السدادة وارتحل المجاهدون إلى سرت وبعضهم ارتحل إلى فزان.

وهنا قرر نوري السعداوي الهجرة مع أخيه بشير ومجموعة من قيادات الجهاد ارتحلوا في مجموعات إلى مصر ومنها وصل إلى بيروت حيث لحق به بشير السعداوي.

ولما وصل أخوه بشير إلى المملكة العربية السعودية كمستشار للملك عبد العزيز، انتقل نوري بكامل أسرته إلى السعودية حيث تمَّ تعيينه (مسؤول مال) في منطقة (أبها).

لم نجد الوثائق التي توضح لنا الوظائف التي تقلّدها نوري في المملكة العربية السعودية، غير أنه يتضح لنا أنه كان على علاقة جيدة مع الملك عبد العزيز رحمه الله، وأنه يثق به وبأخيه بشير، الأمر الذي جعله يزوج ابنة أخيهما المختار (سميرة) إلى ابنه الأمير ناصر بن عبد العزيز الذي أصبح فيما بعد وزيراً للدفاع في المملكة العربية السعودية، وقد أنجبت منه الأمير منصور بن ناصر.

وبعد أن ترك بشير العمل مع الملك عبد العزيز انتقل نوري إلى بيروت ومنها طلب العودة إلى ليبيا في مذكرة للملك إدريس الذي سمح له بالعودة، فعاد إلى ليبيا في أواخر الستينات، ولم يمكث طويلاً، بل عاد إلى بيروت حيث توفي عليه رحمة الله في عام 1969.

وقد تزوج نوري السعداوي ابنة الجمل من الأسر الطرابلسية وترك منها أولاده إبراهيم وعبد الرحمٰن ومحمود، وتزوج من سيدة لبنانية ترك منها أولاده سهيل أصبح ممثل الجماهيرية في منظمة أوبك للنفط، وكذلك زهير مسؤول جريدة الحياة في لبنان، ولكل من هؤلاء الأولاد أولاد وبنات يقيم أغلبهم في ليبيا.

السيد أحمد الشريف السنوسي

هو أحمد بن محمد الشريف بن محمد بن علي السنوسي تنتمي أسرتهم إلى الأدارسة الذين استقروا في مدينة مستغانم الجزائرية من قبيلة (بني الخطاب).

جاء جده إلى ليبيا في منتصف القرن التاسع عشر حيث أسس مجموعة من الزوايا لتدريس الدين الإسلامي وتحفيظ القرآن الكريم، وهو المؤسس للطريقة التي عرفت باسمه (الطريقة السنوسية) التي لها أتباع في جنوب الجزائر وشرق ليبيا وفي تشاد والنيجر وفي شمال مالي.

ولد السيد أحمد بواحة الجغبوب مركز الدعوة ليلة الأربعاء بتاريخ 27 شوال 1290 هـ الموافق لسنة 1873 م، حفظ القرآن في زاوية الجغبوب وتلقى علومه الدينية على يد علماء الطريقة في الجغبوب، وكان على رأسهم عمه محمد المهدي السنوسي الذي رافقه طيلة حياته والذي تولى أمر الطريقة بعد وفاة والده محمد علي السنوسي.

وعندما اصطدمت القوات الفرنسية مع المجاهدين الليبيين في تشاد والنيجر منذ عام 1899 م ورأى السيد محمد المهدي أن الضرورة تقضي بإشرافه المباشر على المعارك ارتحل إلى (قرو) في شمال تشاد

في سنة 1317 ليشد من عضد مشايخ الزوايا الذين يقارعون الاستعمار الفرنسي منذ دخوله إلى المنطقة وعلى رأسهم الشيخ محمد السني والشيخ البراني الساعدي والشيخ عبد الله الطوير والشيخ صالح بوكريم والشيخ أبو عقيلة الزوي والشيخ عمر المختار والشيخ الشارف الغرياني وجميعهم كانوا قادة للجهاد حتى أن الشيخ عمر المختار جرح في هذه المعارك.

وصل الشيخ محمد المهدي إلى (قرو) يرافقه جمع كبير من الليبيين من بينهم 1062 من حفظة القرآن[1]، وقد رافق أحمد الشريف عمه إلى قرو حيث شارك في قيادة المعارك التي خاضها المجاهدون منذ سنة 1899.

وفي عام 1902 توفي الشيخ محمد المهدي السنوسي مريضاً في منطقة (قرو)، وأوصى أن يتولى قيادة الحركة من بعده الشيخ أحمد الشريف لما عرف عنه من علم غزير وتقوى وإيمان راسخ، فاجتمع الإخوان في منطقة (القفزة) بعد أن تم دفن جثمان الشيخ المهدي وذلك يوم 12 ربيع الأول 1220 الموافق 19 يونيه 1902 وانتخبوا أحمد الشريف.

استمر أحمد الشريف مواصلاً للجهاد يشرف على المعارك ويدعم الجبهات حيث خاض المجاهدون معارك (كانم) و(بئر العلالي) التي استشهد فيها الشيخ أبو عقيلة الزوي ومعارك عين (كلكا) التي استشهد فيها الشيخ البراني الساعدي والشيخ عبد الله الزوي في ومائة مجاهد من الليبيين عليهم رحمة الله ورضوانه.

---

(1) انظر برقة العربية، الطيب الأشهب.

ولقد قام أحمد الشريف بمساعي مع سلاطين المنطقة لإعلان الجهاد ضد الفرنسيين سلطان الوداي وسلطان (دارفور) في غرب السودان حيث اجتمع رأيهم على محاربة الفرنسيين الذين يعملون جاهدين على استعمار المنطقة وإذلال المسلمين والسيطرة على طرق القوافل التجارية بين شمال أفريقيا ووسطها.

غير أن قوَّة الفرنسيين كانت فوق استطاعة المجاهدين الذين لم يتلقوا أي دعم خارجي من الغير، ولم تستطع تركيا الدولة المرجعية في شمال أفريقيا أن تساعدهم باستثناء إرسال حوالي عشرة جنود مع ملازم لمنطقة وداي ليرفع العلم عليها دلالة على تواجد الأتراك في المنطقة.

اتخذ السيد أحمد الشريف من (القفرة) مقراً له وأناب عنه في إدارة قيادة الجهاد في تشاد الشيخ محمد السني الذي استمر يدير المعارك إلى ديسمبر 1913 حيث وقعت آخر المعارك حول بلدة قرو واستولى عليها الفرنسيون بعد دفاع مشرف كاد يسقط فيه الشيخ محمد السني في الأسر، وقد تم أسر بعض من أفراد أسرته وأولاده.

الاحتلال الإيطالي 1911

بعد تمهيد طويل من قبل إيطاليا لاحتلالها ليبيا عن طريق إرسال البعثات التجسسية وشراء الذمم والضغط على تركيا، وتوجيه الرأي العام العالمي على ضرورة احتلال إيطاليا لليبيا.

بعد هذا كله كشرت إيطاليا عن أنيابها وهاجم أسطولها ليبيا في 3 أكتوبر 1911 بعد إنذار للحكومة التركية، حينها هب الليبيون جميعاً

للدفاع عن وطنهم ووجه الشيخ أحمد الشريف نداء إلى جميع الليبيين يدعوهم فيه إلى الجهاد واستطاع تجميع المجاهدين في الجنوب الشرقي والزحف بهم نحو الشمال للدفاع عن المنطقة الشرقية من ليبيا، أما المنطقة الغربية فلقد تولى زعماؤها الدفاع عن مواقعهم وبلدانهم دونما حاجة لمن يذكرهم بالواجب الوطني.

وتولى الدفاع أيضاً مجموعة من الجنود الأتراك لا يتجاوز عددهم خمسة آلاف يقودهم ضباطهم وعلى رأسهم أنور باشا ومصطفى كمال ومجموعة من الضباط الآخرين، غير أن الدعم العثماني لم يستمر، إذ تفاوضت تركيا مع إيطاليا سرًّا ووقَّعت معاهدة (أوشي) بمدينة (لوزان) بسويسرا تنسحب تركيا بموجبها من ليبيا وتترك الليبيين لمصيرهم وأمرت جنودها وضباطها بالانسحاب من ليبيا.

وقد انسحب كل الضباط العثمانيين وتركوا أسلحتهم لإخوانهم المجاهدين الليبيين باستثناء عزيز المصري الذي كان يدير منطقة بنغازي، فلقد اتصل سراً بالطليان عن طريق العميل حسن حمادة، إذ قام بحرق المواد الطبية وأوراق المجاهدين وقطع الأسلاك البرقية والتلفون وجرد المجاهدين من وسائل الدفاع، وأخذ سلاحهم ووضعه في موقع أخبر عنه الإيطاليين، فقصفوه وغادر درنة بجميع أسلحته ولما تعرض له المجاهدون يطلبون منه إبقاء السلاح، أطلق عليهم النار وقتل منهم خمسة وجرح ثمانية وقتل مجموعة من الأسرى.

وأثناء انسحابه التقى في طريقه في السلوم بألماظ أفندي يحمل مساعدات للمجاهدين، وكان المبلغ الذي معه تسعة آلاف جنيه،

فأخذها منه وباح بجميع الأسرار الحربية لأعداء الإسلام[1].

ولم يكتف عزيز المصري بذلك، بل أشاع عند وصوله إلى اسطنبول أن أحمد الشريف قد خان وتنكر للسلطان العثماني الأمر الذي جعل أحمد الشريف يرسل مندوباً عنه هو عبد العزيز العيساوي ليشرح الموقف.

وبالرغم من انسحاب تركيا إلا أن المجاهدين الليبيين قرروا مواصلة الجهاد وهاجموا الإيطاليين في مواقع كثيرة كان النصر فيها سجالاً بين الطائفتين.

استطاع الإيطاليون أن يتقدموا في المناطق الغربية ويصطدموا بالشيخ محمد عبد الله البوسيفي في موقعة (المحروقة) الشهيرة ديسمبر 1913 حيث استشهد عليه رحمة الله ومعه اثني عشر شيخاً من شيوخ القبائل وتقدم الإيطاليون حتى وصلوا (غات) في أقصى الجنوب الغربي في منتصف عام 1914.

ولكن المجاهدين في المناطق الجنوبية الشرقية صدوا التقدم الإيطالي، فلم يستطع الإيطاليون التغلغل إلى الجنوب حيث يربض أحمد الشريف ورجاله في الجغبوب، ولو أن خديوي مصر هو الآخر خضع للضغط الإيطالي وقفل طرق الإمداد أمام قوافل الليبيين الذين بدأوا يتزودون من أسواق مصر تسللاً عبر الحدود.

وهنا أرسل السلطان العثماني سيفاً ونيشاناً مرصعاً بالجواهر للسيد

---

(1) الحركة السنوسية، المصدر السابق، الجزء الثاني، ص 216.

أحمد الشريف في مارس 1913 تقديراً لجهاده ودوره في مقارعة الفرنسيين والإيطاليين في المنطقة، وليت السلطان العثماني قام بإرسال مجموعة من البنادق أو الذخيرة لهذا الشعب الذي تركه لمصيره المجهول وانسحب من ترابه بعد أن حكمه أربعمائة وخمسين سنة وبعد أن أخذ خيرة شبابه للعسكرية للدفاع عن تركيا.

وإذا علم القارىء أن في معركة الدردنيل في الحرب العالمية الأولى استشهد فيها 360 ضابطاً ليبياً عرف مقدار مساهمة الليبيين في الدفاع عن تركيا[1].

بدأت نذور الحرب العالمية الأولى تلوح في الأفق، وصار الإنجليز يتوددون للشيخ أحمد الشريف ويرسلون ضباط قيادتهم في الشرق الأوسط ومصر يخطبون وده خاصة بعد أن علموا مدى تأثيره على السلطان علي دينار في غرب السودان ـ الذي أشعل الثورة فيما بعد ضدهم ـ وبدأوا يعدونه بفتح الأسواق المصرية لمجموعاته وأنهم سيساعدونه إذا لم يهاجمهم في مصر ويصغي للداعية التركية.

وشرع الشيخ أحمد الشريف يجمع فلول القبائل المتناثرة، ويكوِّن منهم جيشاً من المجاهدين تتولى القبائل والعائلات الإنفاق عليهم، ويتولى تدريبهم ضباط ليبيون تخرجوا من المدارس التركية ورفضوا الانسحاب من وطنهم إلى تركيا.

---

(1) رواية اللواء أركان حرب عمران الجاظرة، أحد الليبيين الذين ترقوا في الجيش التركي وقاتلوا مع تركيا للدفاع عنها في الحرب العالمية الأولى، التقى به المؤلف عام 1974 في أنقرة.

أحمد الشريف وحرب الإنجليز

قرَّرت الحكومة التركية خوض غمار الحرب الأولى مع الألمان ضد الإنجليز والفرنسيين والطليان، وقد قرَّرت إرسال حملة عسكرية من الشام عبر سيناء لطرد الإنجليز من مصر بقيادة جمال باشا، ورغبت تركيا أن يهاجم السيد أحمد الشريف مصر من جهة الغرب لتخفيف الضغط على جمال باشا.

أرسلت تركيا لهذا الغرض مجموعة من الضباط الأتراك وعلى رأسهم أنور باشا الصديق القديم للشيخ أحمد الشريف، كما أرسلت مجموعة من القيادات الليبية لهذا الغرض، منهم الشيخ سوف المحمودي الذي واصل رحلته نحو الغرب وشارك في التحضير لمعركة القرضابية الشهيرة ومعركة بني وليد ومعركة فندق بن غشير ومجموعة من معارك 1915 في غرب ليبيا.

كما أرسلت أيضاً الشيخ سليمان الباروني، وقد أنزلت غواصة ألمانية هذه المجموعة في خليج السلوم ووصلوا إلى الشيخ أحمد الشريف في الجغبوب.

وبقدر ما حرصت على مساهمة أحمد الشريف في الحرب ضد الإنجليز حرص الإنجليز في مصر على حياد الشيخ أحمد الشريف وكثفوا من مراسلاتهم له[1].

غير أن مجموعة الضباط والشيخ سليمان الباروني ألحُّوا على

---

(1) اقرأ رسالة اللورد كتشنر، في الحركة السنوسية في ليبيا، المصدر السابق، ص 222 أو 226.

الشيخ أحمد الشريف في دخول الحرب إلى جانب السلطان، وفي اجتماع ضم الشيخ أحمد الشريف والضابط التركي أنور باشا أجاب أحمد الشريف مخاطبه الذي يطلب منه بإلحاح دخول الحرب قائلاً: «الحرب حربان حرب تأتيك وحرب تأتيه، فالحرب الذي تأتيك (ويقصد حرب الطليان) يجب عليك مدافعته بأي حالة كانت والحرب الذي تأتيه (ويقصد حرب الإنجليز) يجب عليك الاستعداد له»[1].

كما وصل لهذه الغاية الضابط الألماني (مانسمان) بكتاب خاص من الإمبراطور الألماني إلى أحمد الشريف ويحمل نيشاناً رفيعاً منحه الإمبراطور إليه.

كل هذه الوفود من أجل دفع أحمد الشريف للحرب باتجاه مصر، وقد حاول أحمل الشريف أن لا يشترك في هذه الحرب، لأن الإنجليز حتماً سيغلقون الحدود المصرية في وجه القوافل الليبية والجنوب الذي تحتله فرنسا (تشاد والنيجر) في عداوة مع الليبيين فمعناها تشديد الحصار على الشعب الليبي وتجويعه.

غير أن مجموعة (تشكيلات مخصوصة) التركية التي وصل ضباطها إلى المنطقة بدأوا يستميلون الناس باتجاه الحرب ويزينون لهم حرب الكفار والضرب على وتر الجهاد، بل وذهب بهم الأمر إلى التآمر على حياة الشيخ أحمد الشريف الذي رفض وجهة نظرهم، ولغموا خيمته لتفجيرها، ولكنه اكتشف المؤامرة وقبض على المتآمرين وكان أحد أقربائه من ضمنهم وحامت الشبهات حول الشيخ سليمان الباروني

(1) برقة العربية، ص 314.

حيث اعتقله عدة أشهر وأطلق سراحه فيما بعد ليعود إلى تركيا ومنها يرجع إلى مصراته في غواصة تركية مرسلاً من قبل الأتراك كوالي لطرابلس الغرب.

بدأ نوري باشا ومجموعته جعفر العسكري وغيرهم يتسللون إلى الأراضي المصرية ويشنون الغارات على القرى والحاميات الإنجليزية دون علم السيد أحمد الشريف الذي وافق أخيراً على خوض هذه الحرب وهو يعلم أنها خاسرة فقسم قواته إلى مجموعتين مجموعة تتقدم من الجنوب باتجاه واحات سيوه والفرافرة، وكانت برئاسته هو شخصياً ومجموعة تتقدم نحو السلوم باتجاه الإسكندرية يرأسها أنور باشا، وقد انضم للمجاهدين محمد صالح حرب، وهو ضابط مصري يقود مجموعة من الهجانة على الحدود وسار بمعية الشيخ أحمد الشريف.

استطاع المجاهدون الاستيلاء على النقاط الإنجليزية الضعيفة وتغلغلوا حتى وصلوا إلى الحمام قرب الإسكندرية وأسروا من الإنجليز قرابة التسعين جندياً وتأخر جمال باشا إذ لم يستطع الوصول إلى القناة كما هو مخطط له وهاجم الإنجليز قوات المجاهدين وأجبروها على التقهقر من جهة الساحل واشتركت الطائرات في قصف تجمعات المجاهدين والبوارج البحرية والمدفعية.

وقد أخبرني المجاهد محمد شرف الدين الذي كان ضابطاً تركياً جاء مع أنور باشا واشترك في هذه الحملة[1].

---

(1) محمد شرف الدين من الريانية، ضابط تركي، اشترك في الجهاد وكان في منطقة الخمس، وبعد الثورة التقيت به عدة مرات وحدثني عن الجهاد وعن حملة أحمد الشريف على مصر (للمؤلف).

إن الإنجليز استطاعوا عن طريق قصفهم الجوي من تشتيت الحملة وأن يخلصوا أسراهم كما تم أسر الضابط التركي جعفر العسكري[1] وهناك قول يقول: إن جعفر سلم نفسه للإنجليز بناء على اتفاق سابق.

أما السيد أحمد الشريف قائد الجبهة الجنوبية، فلقد بقي محتلاً لمنطقة (سيوه) أكثر من ثلاثة أشهر، ولكن الإنجليز أخرجوه منها وهددوا بقصف الجغبوب إذا هو لجأ إليها إذ وجدهم في غيابه قد اتفقوا (أي الإنجليز) مع ابن عمه إدريس السنوسي على أن يتولى هذا إدارة الحركة السنوسية بدلاً من أحمد الشريف كما اتفق الإيطاليون مع إدريس نفس الاتفاق وكان الاتفاق يضمن إنهاء دور أحمد الشريف في هذه الحركة.

انتقل أحمد الشريف بقواته من المجاهدين الذين ينقصهم الزاد والذخيرة ووسائل النقل وقطعوا صحراء (القرضبة)[2] وهي صحراء معطشة لا ماء فيها ولا نبات، واستشهد في الطريق مئات المجاهدين جوعاً وعطشاً ونفقت جميع الخيول من العطش والتعب كما نفقت أغلب إبل الحملة.

ويقول أحد المرافقين للشيخ أحمد الشريف في إحدى لحظات اليأس في هذه الرحلة والناس يقتلها الظمأ، أمر السيد أحمد الشريف أن نصلي صلاة الاستسقاء وما أن فرغنا من الصلاة حتى تكوّنت السحب

---

(1) جعفر العسكري، ضابط تركي عراقي، أصبح فيما بعد وزيراً للحربية في العراق.
(2) صحراء القرضبة بين مصر وأوجلة من أوحش الصحارى وأقلها ماءً ونباتاً.

أبرق البرق وأرعد الرعد وهطلت الأمطار بغزارة إلى أن ملأت الغدران الأودية فشرب الجميع وسقوا ما تبقى من حيواناتهم وملأوا قربهم شكروا الله العظيم على هذه الإغاثة.

وصل أحمد الشريف إلى منطقة (الجفرة)[1] وكان جيشه قد فقد أكثر من ثلثيه من الجوع والعطش ومتاعب الصحراء وقد منع عليه إدريس السنوسي الميرة التي كانت تأتيه من الشمال كما زاد الطين بلة الخلاف الذي وقع بين السيد صفي الدين السنوسي ورمضان السويحلي بعد معركة القرضابية، إذ أرسل نوري باشا المقيم بمصراته قافلة محملة بالتموين والسلاح إلى أحمد الشريف لدعمه ومساعدته، وذلك من مصراته مركز إنزال المساعدات القادمة من تركيا ومن ألمانيا.

ولكن ما أن علم بها رمضان السويحلي حتى أرسل في إثرها مجموعة من جنوده فقتلوا حماة القافلة وأرجعوها إلى مصراته وأصبح أحمد الشريف كما عبّر هو عن نفسه بين نارين نار إدريس السنوسي في الشرق ونار رمضان السويحلي في الغرب إلى جانب نار الإنجليز والفرنسيين والطليان.

وعند وصول أحمد الشريف إلى الجفرة التي وقف أهاليها وقفة لا ينساها لهم التاريخ في إنقاذ جيش أحمد الشريف بما يملكون من تمر وموارد استراح الجيش قرابة الشهر ثم واصل رحلته إلى قرية (سلطان) على الساحل بين أجدابيا وسرت حيث نزل السيد أحمد الشريف هناك وقد أرسل مساعده العسكري محمد صالح حرب إلى مصراته لمقابلة

(1) الجفرة: هي ثلاث قرى في وسط ليبيا هون وسوكنة وودان.

الأمير عثمان فؤاد المتواجد هناك ليطلب منه مخاطبة الدولة العثمانية لترسل غواصة لتنقل السيد أحمد الشريف إلى اسطنبول ليتباحث مع السلطان في أمور ليبيا.

وصادف أن قدمت غواصة ألمانية تحمل يوسف شتوان وحسام الدين بيه وهما ليبيان عضوان في منطقة (تشكيلات مخصوصة) ويحملان رسالة من السلطان محمد وحيد الدين إلى السيد أحمد الشريف يدعوه فيها لزيارة اسطنبول، وذلك لتقليد السيف للسلطان عند جلوسه وللحديث فيما يخص ليبيا، وكذلك لإمكانية مساعدة السيد أحمد الشريف في التدخل لإنهاء المشكل القائم بين السلطان العثماني والشريف حسين بن علي في الحجاز.

وفي شهر سبتمبر 1918 الموافق ذي القعدة 1336 هـ ركب السيد أحمد الشريف الغواصة وبرفقته الشيخ محمد بن عبد الله الموهوب ومحمد صالح حرب وعثمان الشائقي وعبد السلام بوقشاطة والدكتور عبد السلام المسلاتي وصالح بن محمد بوعرقوب البرعصي[1] وكانت الحرب العالمية الأولى في أوجها، والحلفاء تجوب سفنهم وغواصاتهم البحر المتوسط لاصطياد السفن التركية والألمانية غير أن الله سلم ووصل السيد أحمد الشريف إلى اسطنبول حيث استقبل استقبالاً عظيماً حافلاً من قبل كبار رجال الدولة والأعيان وأنزلوه بـ(سراي طوب كوبر) مقر الخلفاء من آل عثمان حيث استقبله السلطان في اليوم الثاني ومنحه وسام (النيشان المجيدي من الرتبة الخامسة).

---

(1) انظر الحركة السنوسية، المصدر السابق، ص 266.

أحمد الشريف في تركيا

كان أحمد الشريف حريصاً على سرعة العودة خاصة وأنه قد ترك مجموعات من المجاهدين في منطقة (سلطان) تنتظر عودته ولم يترك لهم ما يكفيهم من الزاد والعتاد[1] واتفق مع السلطان وأنور باشا على العودة السريعة إلى ليبيا لدعم الجهاد ضد الطليان، وقرر الأتراك مده بالمال والعتاد والسلاح وتقرر إعطاءه 12000 اثني عشر ألف بندقية مع عدتها وعشر مدافع وثلاثين رشاشاً و200.000 جنيه[2].

غير أن الرياح أصبحت تجري بما لم تشته السفن فلقد تغيرت الوزارة وسقط أنور باشا، ولم يتم إرسال الصفقة وتعطلت عودة السيد أحمد الشريف.

انتقل السيد أحمد الشريف إلى (بروسة) فلقد هاجمت القوات اليونانية اسطنبول بمساعدة الحلفاء واندفعت قواتها تستولي على الولايات العثمانية، وأصبح السلطان شبه أسير في اسطنبول وتم الضغط عليه لإنهاء المقاومة، فأرسل الضابط الكبير مصطفى كمال للقوات التركية المدافعة في هضبة الأناضول يطلب منها التسليم.

غير أن مصطفى كمال عندما شاهد الروح المعنوية للقوات والتقى بزملائه الضباط اتفق معهم على مواصلة القتال، إذ إن السلطان أسير في اسطنبول ولا حول له ولا قوّة.

---

(1) هاجم إدريس السنوسي هذه المجموعة وجردها من السلاح وضمها إلى قواته بعد رحيل السيد أحمد بقليل.

(2) الحركة السنوسية، المصدر السابق، ص 272.

شرع مصطفى كمال يقود المعارك ضد اليونانيين مدعياً حمل راية الإسلام وقام بتحطيم الخمارات ودور الفساد، الأمر الذي جعل أحمد الشريف يميل إلى جانبه، وقد عرض مصطفى على السيد أحمد أن يتم تعيينه نائباً للسلطان فرفض الشيخ أحمد الشريف وقامت ثورة الأكراد، فكلف مصطفى كمال صديقه أحمد الشريف أن يذهب إليها ويطلب من الأكراد الانضمام للشعب التركي لمقاتلة الأعداء مجتمعين.

واستطاع أحمد الشريف أن يتفق مع الأكراد على إنهاء ثورتهم والالتفاف مع بقية الشعب للدفاع عن تركيا، وقد أكرم الأكراد وفادته وخرجوا به وأنزلوه المنزلة التي يستحقها وطلبوا منه البقاء معهم ولكنه قال لهم: «أنا مجمع ولست مفرق»، ولقد كان الأكراد عند حسن الظن بهم فأوقفوا ثورتهم وتدفقوا للجهاد ضد اليونان أعداء الوطن.

بقي أحمد الشريف في ديار بكر ستة أشهر يدعو للجهاد ومناصرة الإسلام والمسلمين والدفاع عن أرض الخلافة.

بدأت القوات اليونانية تتقدم وتكتسح العثمانيين في كثير من المواقع ولم يبق لهم بينهم وبين (أنقرة) العاصمة الجديدة للعثمانيين إلا عدة كيلومترات.

أبرق مصطفى كمال للسيد أحمد الشريف شارحاً له الموقف ومطالباً منه الدعاء والاستغاثة لله عز وجل.

ورد أحمد الشريف على برقيات مصطفى كمال قائلاً: «ثق بالنصر من الله ويأتيك الغوث إن شاء الله»، وانتدب إليه أحمد الشريف رفيقه في الجهاد والهجرة الشيخ محمد بن عبد الله الزوي وأعطاه مصحفاً

شريفاً وسيفاً وبرنوساً من ملابسه الخاصة، وقال له في كتابه الخاص: «بعثت إليك بمصحف الله تعالى وسيف النصر وكسوة العز والفوز إن شاء الله تعالى».

فلما وصل مندوبه إلى مصطفى كمال وهو في الجبهة على رأس الجيش المستميت على نهر (سقاريا) سلَّمه الرسالة وأعطاه الأمانة، فأمر مصطفى كمال بالتعبئة العامة والهجوم المعاكس على العدوّ ورتب الجبهة.

وفي صباح اليوم الذي قرر فيه بدء الهجوم جمع القادة يتقدمهم رئيس أركان حربه فوزي باشا وعصمت باشا ورأفت باشا وغيرهم ثم لبس البرنوس المرسل له من السيد أحمد الشريف وتقلد السيف وعلق المصحف الشريف ثم تقدم وصلى بهؤلاء القادة ركعتين بحضور محمد عبد الله الزوي وتضرعوا إلى الله عز وجل وطلبوا منه العون والنصر ثم أطلق مصطفى كمال من يده رصاصة الهجوم وبدأت المعركة الاستماتة ودامت ثلاثة أيام بلياليها فنى خلالها ما ينوف عن العشرين ألفاً من الأتراك وما يزيد على الثلاثين ألفاً من اليونانيين، واختلت في نهايتها مقدمة جيش اليونان وولت فلوله على أعقابها وتعقبتها الجيوش الكمالية وكان ذلك بداية الانتصار النهائي على اليونان[1].

وصل أحمد الشريف إلى أنقرة مهنئاً مصطفى كمال بالنصر واحتفل الأتراك بمقدمه، ثم رجع إلى (طرسوس)، وفي جولة لمصطفى كمال في أنحاء المناطق المحررة وصل فيها إلى (طرسوس) حيث حضر

(1) الحركة السنوسية، المصدر السابق، ص 279.

لزيارة السيد أحمد الشريف وعلى مأدبة الغذاء التي حضرها الكثير من قادة الجيش والوجهاء في المنطقة قال مصطفى كمال في كلمته على المائدة: «أيها الإخوان اسمحوا لي لأعرفكم بمن نحن في حضرته وعلى مائدته، نحن الآن في حضرة فخر المسلمين وحفيد سيد المرسلين المجاهد السيد أحمد الشريف السنوسي معلمنا الأول ومؤسس أول مدرسة في برقة، كنا وفدنا إليها وتلقينا دروس الجهاد والمقاومة والدفاع عن النفس والدين والوطن بها، وهذا (ويشير إلى أحمد الشريف) هو الذي غرس في نفوسنا شجرة الدفاع الثابتة وهو الذي آزرنا في محنتنا القاسية وشجعنا بأفكاره وآرائه الصائبة حتى نلنا شرفنا وعزتنا وأنقذنا من براثن أعداء بلادنا، فله من الحكومة والشعب التركي كمال الشكر والتقدير».

وقد رد السيد أحمد الشريف بقوله: «الشكر لله وحده هو الذي أيّدكم ونصركم ومزق أعداءكم بسبب جدكم واجتهادكم وتوحيد صفوفكم ونرجو من الله لكم مزيد التوفيق..»[1].

وبعد سنة من إقامته في طرسوس انتقل السيد أحمد الشريف إلى مرسين حيث زاره مجموعة من وجهاء ليبيا يطلبون منه المشورة والرأي ويطلعونه على الأحوال في البلد، كما زاره الأمير شكيب أرسلان، وأرسل هو عدة رسائل إلى الشيخ عمر المختار يحثه فيها على مواصلة الجهاد.

وقد كتب شكيب أرسلان في كتابه حاضر العالم الإسلامي يمتدح

(1) الحركة السنوسية، المصدر السابق، ص 280.

أحمد الشريف ونزاهته ونظافة يده وإيمانه القوي وجهاده الكبير في سبيل إعلاء كلمة الله.

إسقاط الخلافة

وصل مصطفى كمال وقواته إلى اسطنبول وتمَّ إخراج الخليفة محمد وحيد الدين منها وعيّنوا بدله عبد المجيد لمدة ستة أشهر، وخلع مصطفى كمال القناع وأعلن محاربته الإسلام والمسلمين وأعلن عن قيام الدولة العلمانية وأسقط الخلافة وحاول السيد أحمد الشريف نصحه وتذكيره بمناصرة المسلمين له، ولكن مصطفى كمال لم يرقه ذلك، واستمر في إزالة الآثار الإسلامية من تركيا وفصلها عن أمتها وتنكر لكل المبادىء التي بدأ بها ثورته واتفق فيها مع السيد أحمد الشريف.

كما تغير من جانب السيد أحمد الشريف وبدأت السلطات التركية تضايقه كما قطعت عنه المساعدات، وأخيراً قررت إبعاده بطريقة طلبت منه الاختيار بين خطتين إما الخروج من تركيا في مدة لا تتجاوز العشرة أيام أو إلزامه بالإقامة الجبرية في قرية عثمانية تابعة لولاية (أضنة) مدة حياته دون اتصال بأحدٍ ما.

الخروج من تركيا

قرَّر السيد أحمد الشريف الخروج من تركيا، وقد تحصل على تأشيرة دخول سوريا لمدة محدودة وفي دمشق نزل ضيفاً على الأمير سعيد الجزائري، وقد استقبله الأحرار في بلاد الشام استقبالاً عظيماً وأكرموه غاية الكرم، وبعد أن استراح عدة أيام واصل رحلته لزيارة بيت المقدس، حيث نزل ضيفاً على الحاج أمين الحسيني رئيس المجلس

الإسلامي الأعلى، غير أن الإنجليز لم يعجبهم وجوده بالقدس فضايقوه إلى أن خرج منها عائداً إلى دمشق.

وفي دمشق حيث تسيطر القوات الفرنسية التي لم تنس لأحمد الشريف مقارعته لها في تشاد ربع قرن من الزمن فطلبت منه مغادرة دمشق وأمام ضغط الفرنسيين عليه بالخروج من دمشق طلب مقابلة القنصل الإنجليزي بدمشق وطلب منه السماح له بالتوجه إلى الحجاز فرفض القنصل الإنجليزي ذلك، فطلب منه الذهاب إلى مصر فرفض أيضاً وقال له: إن ملك مصر لا يوافق فقال السيد أحمد: إذن أذهب إلى اليمن أو الهند أو السودان، فأجاب القنصل الإنجليزي قائلاً: «لا يمكن لك التوجه إلى أي أرض تحكمها بريطانيا».

استشاط السيد أحمد غضباً وقال محتداً: «إذاً مفاتيح الدنيا كلها بيد الإنجليز؟ أليس الأرض كلها لله وأن الأمر بيده، ثم قال له: أما أنا فسيجعل الله لي فرجاً ومخرجاً وأما الحكومة البريطانية والله ثم والله سيأتي يوم تندم فيه على كل هذا التصرف وستخسر كل ما تحت يدها من الممالك وستندم ولا ينفعها الندم..»[1].

فقال القنصل كالمستهزىء: عندكم طريق نجد.

فقال السيد أحمد: نعرفها ولا حاجة لدلالتكم.

فغضب القنصل وخرج محمر الوجه.

واتصل الأمير سعيد الجزائري بمندوب الملك عبد العزيز في دمشق الشيخ عبد العزيز الشقيحي، وعرض عليه رغبة السيد أحمد

(1) الحركة السنوسية، المصدر السابق، ص 288 ـ 289.

الشريف بالتوجه إلى الحجاز، خاطب هذا الملك عبد العزيز وجاءت الموافقة باستقباله.

وهكذا على رأي الشاعر:

ضاقت ولما استحكمت حلقاتها فرجت وكنت أظنها لا تفرج

بدأ السيد أحمد يجهّز للرحلة والفرنسيون يضغطون، واتفق مع ثلاث سيارات لتحمله مع رفاقه إلى المدينة المنورة بأجرة مقدارها 270 جنيه ذهب، وكان السيد أحمد لا يملك المبلغ ولا يريد أن يعلم رفاقه بفراغ يده، وبدأ يماطل في الرحلة وفرنسا تهدد بطرده أو إرجاعه إلى تركيا.

وأخيراً، جاءه الفرج إذ أرسل إليه الأمير شكيب أرسلان مبلغ 400 جنيه استرليني أهداها الشيخ جاسم بن إبراهيم أحد تجار اللؤلؤ بـ(بومباي) بالهند.

وهنا خرَّ السيد أحمد الشريف ساجداً لله يحمده على نعمته، كما رفع يديه داعياً للأمير شكيب أرسلان.

تحركت الرحلة عن طريق نجد، وفي منطقة (الجوف) ألقى الأهالي القبض على أحمد الشريف وجماعته ظانين أنهم من الأعداء وقرروا إحراق السيارات، غير أن أمير المنطقة عبد الله بن عقيل عرف المجاهد أحمد الشريف، عانقه ورحب به واستضافه وأمر بإرجاع السيارات إليه ليواصل رحلته إلى مكة حيث اعتمر ووصل إلى جدة لمقابلة الملك عبد العزيز رحمه الله وأحسن جزاءه حيث أكرمه وأحسن إليه وأبقاه في ضيافته عدَّة أيام انتقل بعدها إلى المدينة المنورة.

في موسم الحج عاد أحمد الشريف إلى مكة حاجًّا واستقبله الملك عبد العزيز بعد قضاء الحج بجدة وجلس معه مقترحاً إمكانية المفاوضات بينه وبين الطليان وذلك لراحة الناس وعودتهم من الشتات إلى وطنهم وأن يجمعوا فلولهم ويرتبوا أمورهم على حسب ما يستطيعون من مصالحة أو محاربة فيما بعد، ورد أحمد الشريف على اقتراح الملك عبد العزيز بتوضيح أن إيطاليا لا عهد لها ولا ميثاق وأنه شخصياً يريد تخليص الوطن منها كلياً كما سيكون إن شاء الله عاجلاً أم آجلاً، ولذلك أرجو أن تتموا إحسانكم لي وتساعدونني على هجرتي وإعفائي من ألاعيب إيطاليا وعدم إشغالكم وانشغالي بما لا يأتي بنتيجة.

فقال الملك عبد العزيز:

«أما مساعدتكم على هجرتكم فهذا حاصل إن شاء الله ولا لنا فيه جميل، وأما موضوع الوطن وأهله فأنتم أدرى به، ولن نشغلكم ثانياً إن شاء الله، نرجو الله أن يقدر للجميع ما فيه الخير والنصر والتوفيق..».

نشاطه بالسعودية

وصل أحمد الشريف إلى المدينة المنورة وشرع يتصل بإخوانه المجاهدين في ليبيا ويتحدث مع الحجاج والمارين به ويقول محمد أسد إنه صادفه في المدينة المنورة وكلّفه بحمل رسالة إلى عمر المختار في الجبل الأخضر[1] كما كان الحجاج الليبيين وسيلة اتصاله بالوطن.

كما نجد أثره في الصلح بين الملك عبد العزيز وإمارة الأدارسة

---

(1) انظر الطريق إلى مكة، محمد أسد.

بعسير حيث إن الأدارسة هم من نفس عائلة السنوسي فجميعهم من أسرة واحدة ولهم اتصالات مع بعضهم البعض ومشاورات[1].

ولهذا استطاع السيد أحمد الشريف أن يجري الصلح بينهم وبين الملك عبد العزيز.

معاهدة التحالف بين الملك عبد العزيز والأدارسة

يقول الأستاذ الدكتور محمد سعيد منشط الشعفي في كتابه العلاقات السعودية واليمنية في سني 1351 ـ 1353 هـ 1933 ـ 1934 م يقول:

«يرجع ظهور الأدارسة في المخلاف إلى وصول جدهم السيد أحمد بن إدريس المغربي إلى صبيا في مطلع القرن الثالث عشر، والتي كانت تحت حكم أشراف أبي عريش.

والسيد أحمد أحد رؤساء الطرق الصوفية، وعند وفاته سنة 1837 خلَّف لأولاده ثروة مادية ومعنوية هائلة، استند عليها حفيده محمد بن علي بن أحمد الإدريسي في تأسيس حكم الأدارسة».

ومن المعلوم أن الشيخ أحمد بن إدريس هو من الأدارسة الأشراف الذين أسسوا دولة في المغرب في القرن الثالث الهجري، وهو أيضاً أستاذ الشيخ محمد بن علي السنوسي جد أحمد الشريف الذي جاء إلى الحجاز للدراسة على يد شيخه أحمد بن إدريس، كما جاء أيضاً الشيخ عبد الله السناري جد أسرة السني الموجودة حالياً في منطقة مزدة في وسط ليبيا.

---

(1) انظر كتاب العلاقات السعودية اليمنية، ص 25.

وقد استطاع حفيد الإدريسي هذا المسمى محمد الذي درس بمنطقة (الكفرة) بليبيا أن يؤسس إمارة ويتولى مشيختها في منطقة عسير.

ونتيجة لتوسع هذه الإمارة جنوباً وقع الصدام بينها وبين إمام اليمن في عدة معارك وقف العثمانيون فيها إلى جانب الإمام يحيى إمام اليمن ضد إمارة الأدارسة.

ويقول الأستاذ الشعفي في كتابه السابق:

«ونتيجة لما بلغه الأدارسة من القوة السياسية والحربية سعت الدولة العثمانية لعقد صلح معهم فأمرت الحكومة العثمانية في سنة 1331 هـ واليها في صنعاء محمود نديم بك بإرسال وفد عثماني ليشارك وفد الإمام يحيى لمباحثة الإدريسي حول شروط الصلح والتي وضعها العثمانيون وهي كما يلي:

أولاً: أن يكون الإدريسي رئيساً على جهات تهامة والمخلاف والسليماني.

ثانياً: أن يتخلى عن علاقته بالأجانب.

ثالثاً: أن يخضع لطاعة الإمام يحيى.

رابعاً: تضمن له الدولة العثمانية راتباً شهرياً.

ولكن الإدريسي رفض هذه الشروط لا سيما الخضوع للإمام يحيى..»[1].

(1) الشغفي، المصدر السابق، ص 21 ـ 22.

واستمر العداء بين الأشقاء المتجاورين بين شد وجذب إلى أن قامت الحرب العالمية الأولى حيث انضم الإدريسي للإنجليز ضد الدولة العثمانية وعقده معاهدة بذلك مع بريطانيا 30 أبريل 1915 لمحاربة الترك عدوهما المشترك وإشغالهم في عسير واستنفاذ قوتهم ومنعهم من استخدام موانىء البحر الأحمر ضد المصالح البريطانية، وفي مقابل هذا تعهدت بريطانيا للإدريسي بإمداده بكل ما يحتاج إليه من أموال ومؤن طوال فترة الحرب. .

وهكذا أصبحت للإدريسي إمارة مستقلة عن اليمن، وقد ناصبه العداء الشريف حسين أمير الحجاز والإمام يحيى إمام اليمن، فما أن ظهر في المنطقة عبد العزيز بن سعود حتى قام الإدريسي بعقد معاهدة صداقة معه تم بموجبها تحديد الحدود بين ولايتيهما وعشائرهما.

ولكن ما أن توفي محمد الإدريسي وتولى ابنه علي الإمارة من بعده حتى اعتراها الضعف ودبت فيها القلاقل ولم يستطع الأمير الصغير السيطرة على الموقف بين عامي 1923 و1930. وقد استطاع الإمام يحيى الاستيلاء على بعض مناطقها الجنوبية كما استولى على موانئها على البحر الأحمر (ابن عباس والصليف واللحية وميدي) كما استولى على المدن باجل والحديدة ومدن تهامة، الضحى، والزهرة، والمنيرة، والزيدية، والمراوعة، وعين عليها حكاماً من قبله[1].

وهنا تدارك الأدارسة الوضع، وخلعوا الأمير علي الإدريسي وعيّنوا بدله عمه السيد حسن الإدريسي.

---

(1) عبد الواسع بن يحيى الواسعي، تاريخ اليمن المسمى فرحة الهجوم والحزن في حوادث وتايخ اليمن، القاهرة 1346، ص 238.

وقد صادف في هذه الأثناء وصول السيد أحمد الشريف السنوسي إلى المدينة المنورة واللقاء بالملك عبد العزيز بن سعود، فقام بالعمل على عقد معاهدة تحالف بين السيد حسن الإدريسي والملك عبد العزيز بن سعود سنة 1345 الموافق 1926.

نص المعاهدة

1 ـ يعترف سيادة الإمام الحسن بأن الحدود القديمة الموضحة في 16 ذي الحجة عام 1338 المنعقدة بين سلطان نجد وبين الإمام السيد محمد بن علي الإدريسي والتي كانت خاضعة للأدارسة في ذلك التاريخ، هي تحت سيادة جلالة ملك الحجاز وسلطان نجد وملحقاتها وبموجب هذه المعاهدة.

2 ـ لا يجوز لإمام عسير إشهار الحرب وإبرام الصلح إلا بموافقة صاحب الجلالة الملك عبد العزيز.

3 ـ لا يجوز لإمام عسير أن يدخل في مفاوضات سياسية مع أي حكومة، وكذا لا يجوز أن يمنح أي امتياز اقتصادي إلا بعد الموافقة على ذلك من صاحب الجلالة الملك عبد العزيز.

4 ـ لا يجوز لإمام عسير التنازل عن جزء من أراضي عسير المبينة في المادة الأولى.

5 ـ يعترف ملك الحجاز وسلطان نجد وملحقاتها بحاكمية إمام عسير الحالي على الأرض المبينة في المادة الأولى مدة حياته، ومن بعده لمن يتفق عليه الأدارسة وأهل الحل والعقد التابعين لإمامته.

6 ـ يعترف الملك عبد العزيز بأن إدارة بلاد عسير الداخلية والنظر في شؤون عشائرها من نصب وعزل وغير ذلك من الشؤون الداخلية من حقوق إمام عسير على أن تكون الأحكام وفق الشرع والعدل كما هي في الحكومتين.

7 ـ يتعهد جلالة الملك عبد العزيز بدفع كل تعدي داخلي أو خارجي يقع على أراضي عسير المبينة في المادة الأولى وذلك بالاتفاق بين الطرفين حسب مقتضيات الأحوال ودواعي المصلحة.

8 ـ يتعهد الطرفان بالمحافظة على هذه المعاهدة والقيام بواجبها.

9 ـ تكون هذه المعاهدة معمولاً بها بعد التصديق عليها من الطرفين.

10 ـ دوّنت هذه المعاهدة باللغة العربية في صورتين تحفظ كل صورة لدى فريق من الحكومتين المتعاقدتين.

11 ـ تعرف هذه المعاهدة بمعاهدة مكة المكرمة.

وقعت هذه المعاهدة في 24 ربيع الثاني سنة 1345 الموافق 21 أكتوبر سنة 1926.

ملك الحجاز وسلطان نجد وملحقاتها	أمير عسير
عبد العزيز بن عبد الرحمٰن الفيصل آل سعود	الحسين بن علي

الختم

كتبها: أحمد الشريف السنوسي.

وقد أرسل الملك عبد العزيز صورة من هذه المعاهدة لإمام اليمن يطلب منه سحب قواته من المدن التي احتلها من إمارة الأدارسة لأنها أصبحت تحت حمايتها.

خضع الإمام يحيى لواقع الأمر وقام بسحب قواته، ونتج عن ذلك الاتفاق مع اليمن على ترسيم الحدود وكف الاعتداءات تلك الاتفاقية التي ساهم فيها بشير السعداوي المجاهد الليبي ومستشار الملك عبد العزيز.

وهكذا ساهم السيد أحمد الشريف في حقن دماء المسلمين وتمتين أواصر الأخوة بين قياداتهم المتصارعة في الجزيرة العربية.

ولم يحترم الإدريسي هذه المعاهدة، فأرسل إليه الملك عبد العزيز وفداً من ضمنه أبو الوليد خالد القرقني المجاهد الليبي ومستشار الملك عبد العزيز لتقصي الحقائق.

وقد تبيَّن أن حسن الإدريسي نقض الاتفاق، فهاجمه الملك عبد العزيز واحتل عسير، ولجأ حسن الإدريسي إلى الإمام يحيى الذي آواه ومنحه اللجوء، وكان لجوءه سبباً في صدامات بين الملك عبد العزيز وإمام اليمن على حدود منطقة عسير (إمارة الأدارسة).

ووصل وفد سعودي من ضمنه خالد القرقني للعمل على ترسيم الحدود وإنهاء التوتر، واستمر ذلك عدة سنوات إلى أن تم الاتفاق وترسيم الحدود، وذهاب وفد من قبل الملك عبد العزيز برئاسة ابنه محمد بن عبد العزيز وعضوية بشير السعداوي.

أزمة في المدينة

كان علماء نجد في بداية توحيد المملكة (الإخوان) في نشوة النصر لسيادة المذهب الوهابي ومنع الكثير من الأشياء التي ألفها المسلمون في عصورهم المختلفة، ومن ذلك (الصوفية) التي لها رواج كبير في شمال أفريقيا وفي بلدان أخرى من العالم الإسلامي.

وطلب علماء نجد من السيد أحمد الشريف أن يتبرأ من كتابات كتبها السيد محمد المهدي السنوسي في هذا الموضوع كما طلبوا منه إعلان التوبة منها[1].

السيد أحمد الشريف وهو ما هو من العلم والتقوى وطول الباع في علوم الدين يطلبون منه ذلك!؟.

رفض السيد أحمد الشريف ذلك، إذ كيف يتبرأ من نهج أستاذه ومعلمه، فطلب هؤلاء العلماء من الملك عبد العزيز إخراج السيد أحمد الشريف من المملكة، وكانت هذه محنة أخرى يتعرض لها السيد أحمد الشريف في الموقع الذي ظن أنه المأمن.

تباطأ الملك عبد العزيز رحمه الله في تنفيذ أوامر الشيوخ ولم يتغير جانبه منه بالرغم من ذلك، وكان الله أقرب من الجميع وبيده حلول المعضلات جل شأنه، ففي صبيحة يوم الجمعة 13 ذي القعدة 1351 الموافق 10 مارس 1933 توفي الحبر الجليل السيد أحمد الشريف بالزاوية السنوسية بالمدينة المنورة ودفن بمقبرة البقيع عليه رحمة الله، وبذلك قطعت جهينة قول كل خطيب ولقد كان لموته الأثر

---

(1) رواية حفيدة راشد الزبير السنوسي (للمؤلف).

الأكبر في العالم الإسلامي، إذ رثاه الشعراء والخطباء وصلوا صلاة الغائب في كثير من البلدان الإسلامية.

وبقدر ما يحزن الصديق يفرح العدوّ، فلقد انتشت إيطاليا بموته واعتبرته حجرة أزيحت من طريق استعمارها ليبيا غير أن الشعب الليبي كان أعظم مما توقعت، فلم يهنأ له بال حتى طردها من ليبيا شر طردة.

ولقد بقي رفاق السيد أحمد الشريف بالمدينة المنورة في رعاية الملك عبد العزيز بن سعود طيّب الله ثراه وأولادهم وأحفادهم هم الآن سعوديين يتمتعون بما يتمتع به الشعب السعودي الشقيق.

المجاهد محمد طارق الأفريقي

طارق الأفريقي

هو محمد بن عبد القادر الأفريقي، وعلى عادة المدارس التركية يجعلون للطالب اسمين فألحقوا به (طارق) وغلبه عليه الاسم كما لقبوه الأفريقي نسبة إلى سواد لونه، وأصوله الأفريقية القديمة، حتى إن الإخوة في السعودية ينسبونه إلى نيجيريا.

ولد عام 1886 بمدينة طرابلس الغرب، فهو من سكانها ومن قاطنيها حيث نزحت أسرته إليها من الجنوب الليبي (فزان)، وقد عنى بتربيته أحد المسؤولين الأتراك الذين كانوا مع رجب باشا ويقول عنه الأستاذ علي المصراتي:

«ومن طفولته عُرف بالذكاء واللباقة والإدراك، وتخرج من المدارس العسكرية بطرابلس في أواخر العهد العثماني، وأكمل دراسته بتركيا..»[1].

تخرج من المدرسة العسكرية التركية برتبة ملازم ثان، والتحق بدورة تدريبية بألمانيا، كان طارق من ضمن الضباط الأتراك المتواجدين بليبيا أيام الغزو الإيطالي لها، بل قل من ضمن الضباط الليبيين المتخرجين من تركيا.

(1) نماذج في الظل، الطبعة الأولى، ص 326.

امتشق السلاح ودافع عن الوطن إلى حين خروج تركيا بموجب معاهدة (أوشي) (لوزان) 1912 حيث سلَّمت ليبيا للطليان، وأخرجت ضباطها وموظفيها وجنودها منها.

خرج محمد طارق الأفريقي من بلده ليبيا، والتحق بالقوات التركية المقاتلة في البلقان، كما اشترك في الحرب العالمية الأولى مدافعاً عن تركيا وعن الإسلام والمسلمين ضد الروس.

ولما أرادت تركيا دعم حرب طرابلس الغرب (ليبيا) ضد المحور في بداية الحرب العالمية الأولى أرسلت مجموعة من الضباط الأتراك والليبيين لمهاجمة الإنجليز في مصر، وكان طارق الأفريقي على رأس المجموعة من الضباط الليبيين الذين وصلوا إلى الحدود الشرقية للشيخ أحمد الشريف لدفعه إلى محاربة الإنجليز في مصر.

اشترك محمد طارق في هذه الحرب التي لم يكتب لها النجاح مع تقدم الليبيين إلى مشارف الإسكندرية، غير أن قلَّة الزاد وقلة العتاد حالت دون تقدمهم فتقهقروا إلى داخل ليبيا ووصل أحمد الشريف بمن معه إلى منطقة الجفرة ثم إلى بلدة سلطان التي ارتحل منها إلى تركيا.

أما الضابط محمد طارق فلقد واصل جهاده، والتحق بالشيخ سليمان الباروني في غرب ليبيا الذي عينته تركيا والياً على طرابلس الغرب حيث واصل معه الجهاد ضد الطليان ولكن ما أن فترت جذوة الجهاد في الجهات الغربية حتى تسلل محمد طارق الأفريقي عبر الحدود التونسية التي كانت في ذلك الزمن تسيطر عليها فرنسا، فقبضت عليه القوات الفرنسية وأودعته السجن، ولم نعثر على طريقة خروجه من

السجن ووصوله إلى تركيا. وقد كتب جزء من مذكراته وسجنه في جريدة الأمة السودانية سنة 1945.

ومن تركيا وصل محمد طارق إلى دمشق حيث التحم مع المجاهدين السوريين ضد الفرنسيين وقدم خبرته العسكرية لأبناء قومه في بلاد الشام، وقد استعان به الداماد أحمد نامي الذي تولى الوزارة السورية تحت الحماية الفرنسية، ويقول الأستاذ علي المصراتي: إنه جاء معه.

وحكومة الداماد كما ذكرنا في الحديث عن بشير السعداوي استعانت ببشير السعداوي كمستشار لها، واستمر محمد طارق الأفريقي في دمشق مكوّناً مع مجموعة المجاهدين الليبيين المهاجرين إلى بلاد الشام جمعية الدفاع الطرابلسي البرقاوي، كما نجده عضواً بارزاً في المؤتمر الإسلامي الأول الذي عقد بالقدس الشريف لدراسة القضايا الإسلامية والعربية وكان برفقته عن ليبيا المجاهد بشير السعداوي.

في بلاد الحبشة

لما هاجمت إيطاليا بلاد الأحباش لاحتلالها امتشق محمد طارق السلاح وتطوع لقيادة الحرب ضد الطليان أعداء بلده، وتسلل إلى بلاد الحبشة، وقاد أحد جيوشها ضد المحتلين ويقول الأستاذ ممتاز عارف في كتابه (الأحباش بين مأرب وأكسوم) عن مشاركة طارق في حرب الطليان في الحبشة وينسبه إلى السودان يقول: «وقد تجدر الإشارة كذلك إلى أن بعض الانتصارات التي حققها الأحباش في هذه الجبهة كان مردها قيادة الجيش الحكيمة، فلقد قاتل مع الأحباش في هذه

الجبهة ثلاثة من الخبراء العسكريين الأجانب الذين تولوا قيادة بعض قطاعاته وهم طارق بك وهو سوداني حارب الإيطاليين في طرابلس الغرب عندما احتلها هؤلاء الغزاة سنة 1911 والمقدم فاروق وهو تركي الأصل والجنسية عمل ملحقاً عسكرياً في السفارة التركية في اليونان ووهاب باشا وهو كذلك تركي . . »[1].

ولما انتصر الإيطاليون واحتلوا الحبشة تسلل طارق إلى السودان ومنه إلى مصر ثم إلى دمشق حيث تزوج هناك من سيدة شامية.

حرب فلسطين

عندما اشتعلت الحرب ضد اليهود في فلسطين عام 1948 تطوع المجاهد محمد طارق الأفريقي للجهاد في فلسطين، ويتحدث المجاهد محمد طارق عن وصوله إلى فلسطين وتطوعه للجهاد بها في كتابه (المجاهدون في معارك فلسطين 1376 ـ 1948) والذي سماه في عنوانه الفرعي (مذكرات عن الحرب الفلسطينية أربعون معركة وأسماها وجرحاها).

يقول: «عندما وقع اعتداء اليهود الأثيم على فلسطين في بداية عام 1948 طلب إلي الحاج محمد أمين الحسيني المفتي الأكبر للديار الفلسطينية ورئيس الهيئة العربية أن اشترك في الحرب دفاعاً عن هذه البقعة العربية المقدسة، ولبَّيت هذا الطلب بكل سرور عن طيبة خاطر، وسافرت إلى يافا وعملت كمستشار حربي للشهيد الشيخ حسن سلامة،

(1) انظر الكتاب (الأحباش بين مأرب وأكسوم) للأستاذ ممتاز عارف، وكذلك كتاب (أعلام في الصحراء) للمؤلف.

ولما استفحلت في هذه الآونة اعتداءات اليهود ضد سكان القرى العربية في جبهة غزة التي لم تكن قوة الجهاد فيها متشكلة كما يجب، قررت الهيئة العربية العليا تعييني قائداً لها، فسافرت مع الشهيد الشيخ حسن سلامة من يافا إلى المجدل في 4 آذار 1948 ليسلمني المنطقة المذكورة وتأسيس جبهة فيها، ووصلناها مساءً في الساعة الثالثة بعدما تخلصنا بأعجوبة من هجوم المصفحات اليهودية التي اعترضت سبيلنا بين معسكر جولييس والمجدل، وكان في رحلتنا المجاهد السيد عز الدين المصري أمين سر قيادة جبهة يافا وهو من أرقى شباب فلسطين، شجاع، مثقف، خطيب ممتاز مخلص لوطنه، أسجل اسمه هنا بكل إعجاب وتقدير . . »[1].

ويقول محمد طارق تحت عنوان (تأسيس قيادة جبهة غزة): «قدمني الشيخ سلامة إلى رئيس اللجنة القومية وأعضائها كقائد الجبهة وبعد الترحيب والخطب الحماسية الوطنية قررنا تأسيس قيادة جبهة غزة وسافرنا في اليوم الثاني إلى الشمال لتحديد حدود المنطقة وكيفية إدارة أعمالها المسلحة وتثبيت المسؤوليات وحددنا شمالاً قرية (بيبني) وشرقاً قرية (مسمية) وجنوباً (دير سنيد) وغرباً ساحل البحر.

وعقب تحديد حدود المنطقة بادرت إلى تعيين القواد المساعدين وعينت المجاهد (عزت حقي) مساعداً للقيادة، وقائداً لموقع قصبة المجدل لضبط أمورها ومراقبة حركات جواسيس اليهود المنتشرة بكثرة.

ونصبت المجاهد (محمد التونسي) قائداً لمنطقة اسدود في

---

(1) طارق الأفريقي، المصدر السابق، ص 43 ـ 44.

الشمال وهي منطقة مهمة تجول فيها قوافل اليهود لتموين مستعمراتهم.

ومحمد التونسي هذا هو عربي كان ضابط صف في الجيش الفرنسي حارب الجيوش النازية إلى أن وقع أسيراً في يد الألمان ثم رافق سماحة مفتي فلسطين الأكبر السيد الحاج محمد أمين الحسيني رئيس الهيئة العربية العليا ومؤسس حركة الدفاع عن فلسطين ضد اليهود من ألمانيا إلى مصر.

وقد قام التونسي بأعمال مجيدة ضد اليهود وشل سير قوافلهم بمعارك دامية قادها مخلصاً بجسارة مع أنه كان غريباً عن فلسطين لا ينتمي إلى حزب فيها أو قبيلة، بل كل غايته سحق اليهود والدفاع عن أرض فلسطين المقدسة ضمن التعليمات التي أصدرتها إليها.

ولو كان جميع قواد المجاهدين مثله لما تمكن اليهود من الثبات أمام المجاهدين رغم نقص تسليحاتهم وتجهيزاتهم وتنظيماتهم..»[1].

وقد خاض طارق بمجاهديه مجموعة من المعارك المجيدة في قطاع غزة يسردها في كتابه (المجاهدون في معارك فلسطين).

معركة الفالوجة الأولى	13 آذار	1948.
معركة الفالوجة الثانية	14 آذار	1948.
معركة المجدل	17 آذار	1948.
معركة معسكر جوليس الأولى	22 آذار	1948.
معركة بربره الأولى	14 آذار	1948.

(1) محمد طارق الأفريقي، المصدر السابق، ص 45 ـ 46.

معركة بربره الثانية	25 آذار	1948.
معركة اسدود وبربرة	26 آذار	1948.
معركة بيت دارس الأولى	27 آذار	1948.
معركة اسدود الثانية	28 آذار	1948.
معركة بيت دارس الثانية	29 آذار	1948.
معركة اسدود الثالثة	31 آذار	1948.
معركة معسكر جوليس الثانية	31 آذار	1948.
معركة قرية جوره	6 نيسان	1948.
معركة اسدود الرابعة	8 آذار	1948.
معركة بربره الثالثة	10 نيسان	1948.
معركة معسكر جوليس الرابعة	13 نيسان	1948.
معركة معسكر جوليس الخامسة	15 نيسان	1948.

وفي آخر تسجيل لهذه المعارك ونتائجها التي كان في أغلبها النصر للمجاهدين وفرار اليهود من الميدان يقول المجاهد طارق الأفريقي: «ولا بد لي من أن أسجل هنا وطنية سكان قضاء المجدل وأعمالهم المجيدة للدفاع عن موطنهم وعلى رأسهم رئيس بلديتهم السيد أبوشرخ برغم نقص أسلحتهم وتجهيزاتهم.

وقد ساعدوني كثيراً هؤلاء الأوفياء في الدفاع عن هذه المنطقة وساهموا بكل ما كان بإمكانهم أن يساهموا به ووصلت بهم الحمية الوطنية إلى بيع مصاغ نسائهم وبناتهم واشتروا بأثمانها الأسلحة والعتاد بأسعار باهظة جدًّا..».

وقد حاول طارق أن يدعم جبهته بشراء السلاح والعتاد، فأرسل وفداً إلى مصر لشراء الأسلحة، ويقول طارق:

«.. على أنني عندما شعرت بعدم إمكان مواصلة الكفاح ضد اليهود في الظروف السيئة المحاطة بنا في تلك الأيام العصيبة فكرت كقائد مسؤول ما يجب علي عمله على وجه السرعة، فبادرت بتكليف اللجنة القومية بتأليف وفد يسافر إلى مصر لشراء الأسلحة والعتاد على حساب اللجنة الخاص، وعندما وافقت اللجنة على اقتراحي اتصلت هاتفياً برئيس الهيئة العربية العليا بالقاهرة وأفهمته الوضع ورجوته السعي لتسهيل سفر الوفد إلى مصر لتدارك الأسلحة قبل أن تسقط جبهة غزة أو بالأحرى قسم فلسطين الجنوبي في يد اليهود، إذ إن قوة اليهود تزداد كل يوم بل كل ساعة بينما يعتري قوة المجاهدين النقص بصورة متواصلة.

وصل وفد قيادة غزة إلى القاهرة بتاريخ 1948/4/21 بعدما حول النقود اللازمة من غزة إلى أحد بنوك مصر لشراء الأسلحة وبعد مصاعب جمة قدم مطاليبه إلى رئيس الهيئة العربية العليا الذي كان مشغولاً جدًّا بحضور اجتماعات اللجنة السياسية لجامعة الدول العربية ورجال الحكومة المصرية لعقد الهدنة الأولى لوقف القتال في فلسطين.

وكان قد مضى على وصولنا إلى القاهرة والاتصال بالهيئة العربية زهاء أسبوعين لم نصل خلال هذه المدة إلى أية نتيجة بينما المعارك ما برحت مستمرة ليلاً ونهاراً في الجبهة.

وقد أدركت ما سوف تنتهي إليه مساعينا من الفشل، فعليه اتفقنا على شراء الأسلحة من تجار مصر، وبالفعل تمكنا من شراء كمية كبيرة

من الأسلحة والذخيرة ولكن مع الأسف لم نتمكن من إرسالها إلى فلسطين بالرغم من مخابرات رئيس الهيئة العربية العليا مع الحكومة المصرية مما أهاب بي إلى أن أتصل بالمرحوم النقراشي باشا بواسطة شخصية مصرية كبيرة وأفهمته أسباب زيارتي، فأجابني بالحرف الواحد: «ليس باستطاعتي قبول طلبك عملاً بنصوص الإرادة الملكية التي تمنع منعاً باتًّا السماح بإرسال الأسلحة إلى فلسطين، إذ إن لدى الحكومة المصرية الأخبار الموثوقة بأن أهل فلسطين أنفسهم هم الذين يصدرون الأسلحة إلى اليهود، وإذا أمكنك أن تأتي بإرادة ملكية على هذه، فإني أعدك بأن أبادر فوراً إلى تسليمك الأسلحة التي تطلبونها».

وبالرغم من هذه المصاعب الهائلة انتظر وفد المجدل أسابيع عدة في مصر حتى اضطر في النتيجة إلى صرف كل ما لديه من النقود، ولجأ إلى الاستدانة لسد نفقات إقامته في القاهرة إلى تاريخ عقد الهدنة الأولى، وعندئذٍ استأذنت من رئيس الهيئة العربية العليا للسفر إلى دمشق وسافرت ولم أعلم فيما بعد ماذا حل بالوفد. . »(1).

ويستمر طارق الأفريقي في سرد مذكراته عن المرحلة حيث يقول:

«كنت في القاهرة عندما عقدت الهدنة الأولى لوقف القتال في فلسطين، وقد بينت لأول الأمر كقائد لإحدى مناطق القتال وملمّ بأحوال المجاهدين واليهود معاً، بأن كل هدنة تعقد مع اليهود لوقف القتال تؤدي حتماً إلى ضياع فلسطين، وذلك لأن الهدنة تزيد في قوة

(1) طارق الأفريقي، المصدر السابق، ص 58 ـ 68 ـ 78.

اليهود وتضعف قوة المناضلين، ولا توجد أية بارقة من الأمل تزيد قواتنا لرد عدوان اليهود ولكن صوتي لم يسمع، وعليه استأذنت من رئيس الهيئة العربية العليا وسافرت إلى دمشق في 1948/5/12 لرؤية عائلتي والاستجمام من عناء حرب دامت عدة شهورة.

وقبل انتهاء الهدنة بيومين سافرت من دمشق بتاريخ 1948/7/7 قاصداً جبهة غزة عن طريق عمان والقدس فوصلت الأخيرة يوم 1948/7/10 وقابلت أحمد حلمي باشا الحاكم العسكري لمدينة القدس حينذاك وأفهمته بأني ذاهب إلى المجدل مركز قيادتي في جبهة غزة فعارضني بقوله: «إن جبهة القدس أهم من جبهة غزة بمراحل، فيجب أن تبقى هنا» وفي 1948/7/11 تلقيت أمره المتضمن تعييني قائداً على منطقة من مناطق القدس فامتثلت للأمر لما أكن لشخصه في قلبي من الاحترام والمحبة..»[1].

وفي قيادته الجديدة قام طارق الأفريقي بتنظيم صفوف قواته وتنسيق دفاعتها وتشكيل قيادتها. وقد خاض بمجموعاته من المعارك منها:

معركة النبي داود الأولى	17 تموز	1948.
معركة دير أبي طور الأولى	20 تموز	1948.
معركة النبي داود الثانية	25 تموز	1948.
معركة دير أبي طور الثانية	26 تموز	1948.
معركة دير أبي طور الثالثة	5 آب	1948.

(1) طارق الأفريقي، المصدر السابق، ص 106 ـ 108.

معركة النبي داود الرابعة	11 آب	1948.
معركة جبل المكبر	26 آب	1948.
معركة النبي داود الخامسة	29 آب	1948.
معركة عرب السواحرة	21 آب	1948.
معركة دار الانتداب البريطاني في جبل المكبر	23 آب	1948.
معركة النبي داود السادسة	27آب	1948.
معركة النبي داود السابعة	1 أيلول	1948.
معركة النبي داود الثامنة	10 أيلول	1948.
معركة وادي ربابة الأولى	29 أيلول	1948.
معركة دير أبي طور الرابعة	2 تشرين الأول 1948.	
معركة سلوان الأولى	4 تشرين الأول 1948.	
معركة سلوان الثانية	9 تشرين الأول 1948.	
معركة دير أبي طور الخامسة	12 تشرين الأول 1948.	
معركة وادي ربابة الثانية	27 تشرين الأول 1948.	
معركة النبي داود التاسعة	20 تشرين الأول 1948.	
معركة دير أبي طور السادسة	25 تشرين الأول 1948.	

وكان نقص الذخائر والتموين والأدوية وضعف السلاح يحول دون القائد محمد طارق الأفريقي والنصر النهائي على اليهود حتى اضطر إلى الذهاب إلى دمشق لطلب الأدوية البسيطة للجرحى وتحصل على قليل منها.

وأمام هذه الظروف وظروف أخرى لم يذكرها طارق الأفريقي في مذكراته ولكنه لمح إليها تلميحاً، استقال من منصبه حيث يشرح ذلك بقوله:

«كما حصلت ظروف اضطرتني إلى الاستقالة من منصبي في قيادة المجاهدين فقدمت استقالتي بتاريخ 22 تشرين الأول 1948 ولكن الحاكم الجديد لم يقبلها إلا في 1948/11/1.

وكانت صيغة استقالته كما أوردها في كتابه آنف الذكر:

عطوفة الحاكم العسكري لمدينة القدس الأفخم

مولاي صاحب العطوفة

نظراً لضعف قواي البدنية من الأعمال العسكرية المتواصلة منذ أربعة أشهر واحتياجي إلى الاستجمام والتداوي، أرجو التكرم بقبول استقالتي من قيادة المناضلين لبيت المقدس.

وإني لآسف جدًّا حرماني من شرف الدفاع عن هذه الديار المقدسة تحت قيادة قائدنا الأعلى مولانا جلالة الملك المعظم بمعية سعادتكم.

وختاماً أرجو التكرم بقبول فائق الاحترام سيدي.

القدس 1948/10/22

مخلصكم

محمد طارق

موافق من 1948/11/1

الحاكم العسكري

ولقد استقال قبل ذلك الحاكم العسكري للقدس أحمد حلمي باشا وخلفه على قيادة المنطقة الكولونيل عبد الله التل وأصبحت المنطقة تتبع الملك عبد الله بن الحسين وتحت إدارة جيش الأردن، وللمطلع على مذكرات عبد الله التل يعرف أسباب استقالة محمد طارق الأفريقي.

ولقد كتبت الصحف نبأ استقالة القائد الأفريقي ونشرت جريدة (النسر) الأردنية في عددها رقم 202 وتاريخ 3 الجاري (نوفمبر 1948) صورة النداء الذي وجهه محمد طارق الأفريقي للمجاهدين الذين يقودهم في المعارك قائلاً: «أيها الضباط والمناضلون البواسل عن بيت المقدس، أراد الله أن أنفصل عنكم مؤقتاً بعد معارك شديدة دامت أربعة أشهر دفاعاً عن مدينة القدس هذه المدينة الخالدة التي هي تراث العرب والإسلام والتي أبرزتم تضحية كبيرة وجسارة نادرة في صد أكثر من ثلاثين هجوماً صهيونياً حاول العدو بها الاستيلاء على هذه المدينة المقدسة التي امتزج ترابها بدماء أجدادكم سابقاً ودماء المخلصين من أبنائكم الآن.

وإني لأذكركم هذا التفاني في أداء واجباتكم كمجاهدين وكإخوان مخلصين مقدراً لكم إيمانكم الصادق وشجاعتكم الفائقة موصياً إياكم بأن لا تتركوا هذه التربة المقدسة تدنسها الصهيونية بأرجاسها ما دام فيكم عرق ينبض أو دم عربي، فقووا إيمانكم بالله وبوطنكم واستبشروا بعدئذ بالنصر النهائي كما وعدكم ربكم إذ قال: ﴿**وكان حقًّا علينا نصر المؤمنين**﴾.

فإلى الأمام وإلى الملتقى في المعركة الفاصلة لإنقاذ فلسطين

العزيزة وإلى الملتقى لإحياء مجد عمر وصلاح الدين ولتحيا فلسطين العربية الإسلامية.

القائد

محمد طارق الأفريقي

وقد نشرت جريدة (البلد) قولها:

«يؤسفنا جدًّا أن تحرم ميادين الجهاد بالأرض المقدسة من عبقرية وبسالة القائد الهمام، وقد وصل مساء أمس إلى دمشق فأهلاً وسهلاً وعلى الرحب والسعة».

لم يطل المقام بالمجاهد محمد طارق الأفريقي إذ نجده بعد فترة وجيزة يتم استدعاؤه إلى الجزيرة العربية من قبل الملك عبد العزيز آل سعود الذي كان خبيراً بالرجال وانتقى منهم مجموعة من مختلف أصقاع الوطن العربي والإسلامي لتثبيت دعائم المملكة الفتية، إذ تم تعيين المجاهد محمد طارق الأفريقي رئيساً لأركان الجيش السعودي في غرة رجب 1358 هـ إذ يقول قرار تعيينه:

بسم الله الرحمٰن الرحيم

المملكة العربية السعودية

عدد

2188

حضرة الهمام المحترم السيد طارق الأفريقي

بعد التحية

بناء على ما هو معهود بكم من الكفاءة والدراية فقد صدرت إدارة حضرة صاحب الجلالة مولاي الملك المعظم بتعيينكم رئيساً لأركان حرب الجيش العربي السعودي اعتباراً من غرة رجب 1358، فنرجو لكم من الله التوفيق والنجاح في سائر أعمالكم. وقد جرى تبليغ الجهات المختصة بذلك لاعتماده ولذا تحرر[1].

وكيل الدفاع

التوقيع

1358/6/27

وقد تسلَّم محمد طارق عمله بالسعودية واستمر بكل إخلاص وتفانٍ، إلى أن أحيل على التقاعد فعاد إلى دمشق.

وفي عام 1958 أصيب المجاهد الكبير بالشلل النصفي الذي أقعده الفراش إلى أن وافته المنية يوم الثلاثاء 27 جمادى الأولى 1383 الموافق 15 أكتوبر 1963، ودفن بمقبرة باب صغير بدمشق، وألقى كلمة التأبين كلمة المحاربين القدماء وضحايا الحرب في سوريا العقيد المتقاعد (محمد شفيق حمدي السندي)[2].

وقد ترك طارق من زوجته الدمشقية بنتين أعلم أنهما يعيشان بدمشق في أواخر الستينات[3].

---

(1) الأصل في مكتبة مركز جهاد الليبيين (طرابلس).
(2) انظر كتاب أعلام من الصحراء، ص 96، للمؤلف.
(3) زعيمة الباروني، صفحات خالدة من الجهاد الليبي، مذكرات سليمان الباروني.

وكما ألف طارق مجموعة من الكتب وصل إلينا منها:

1 ـ مذكرات عن الحرب الفلسطينية (المجاهدون في حرب فلسطين 1948).

2 ـ الغازات السامة.

3 ـ الجزيرة العربية.

4 ـ حرب العصابات المعروفة بحرب (الغوريلا).

رحم الله محمد طارق الأفريقي ذلك المجاهد الليبي الذي يعتبر كل بلاد الإسلام وطنه وكل بلاد العرب بلاده، قاتل من أجل الحرية لا يعرف الحدود حتى جهل الكثيرون موطنه الأصلي فبعضهم ينسبه إلى السودان وبعضهم ينسبه إلى نيجيريا وبعضهم ينسبه إلى دمشق.

غير أن ذلك كله لا ينقص من قيمته بل يزيده فخراً أنه المجاهد العربي الإسلامي الذي يعتز كل قطر بانتسابه إليه.

لقد قضى عمره المديد ـ سبعاً وسبعين سنة ـ ذهب أغلبها في الجهاد ومقارعة الأعداء، لم يلن ولم ينهزم ولم تخر عزيمته رغم كل الشدائد التي قاساها فرحمة الله عليه رحمة واسعة وأسكنه فسيح جناته.

بسم الله الرحمن الرحيم



عدد
٢١٨٨



حضرة الهمام المحترم السيد محمد طارق الافريقي

بعد التحية . بناء على ماهو معهود بكم من الكفاءة والدراية والاخلاص فقد صدرت ارادة صاحب الجلالة مولاى الملك المعظم ايده الله بتعيينكم رئيسا لاركان حرب الجيش العربى السعودى اعتبارا من غرة رجب ١٣٥٨ . فنرجو لكم من الله التوفيق والنجاح فى سائر اعمالكم وقد جرى تبليغ الجهات المختصة بذلك لاعتماده ولذا تحرر ....

٢٧/٦/١٣٥٨ وكيل الدفاع

قرار تعيين المجاهد محمد طارق الأفريقي. (الأصل في شعبة الوثائق والمخطوطات مركز جهاد الليبيين - طرابلس).

عبد الفتاح أبو مدين

لم يكن صاحب هذه الترجمة ـ أطال الله في عمره ـ من قادة الجهاد ولا من زعماء المجاهدين، ولم يكن متطوعاً للحرب في فلسطين أو القتال في البلقان أو محارباً في الدردنيل ذاباً عنه زحوف اليونان في الحرب الأولى ولا الحرب الثانية ولم يكن ضمن القوات المجاهدة الزاحفة على مصر لطرد الإنجليز منها ضمن المجاهدين مع أحمد الشريف ولا من الذين عرفتهم أودية الجبل الأخضر مع المجاهد الشهيد عمر المختار، إذ إن مولده كان بعد نهايات هذه الملاحم غير أنه بالرغم من أنه لم يكن أحد هؤلاء ولا أولئك الغر الميامين إلا أنه مجاهد من نوع آخر، ومقاتل من طينة أخرى، إنه الكاتب والأديب الذي حمل لواء الأدب وسلاحه القلم والورق طيلة أكثر من نصف قرن ولا يزال ـ متعه الله بالصحة والعافية ـ يقتحم أبواب النقد الأدبي، ويهز رايات الصحافة ويحرك مفاصل آلات المطابع في المملكة العربية السعودية، إنه الأستاذ الأديب عبد الفتاح أبو مدين.

هو مفتاح بن أمحمد بن عبد الله بو مدين من مواليد (البركة) بمدينة بنغازي الليبية عام 1926، لم يكن والده صاحب أموال ولا أطيان، ولم تكن أسرته من الأسر ذات الجذور الضاربة في الحكم والمشيخات، بالرغم من أن أسرته تنقلت في الشمال الأفريقي من شرقه

إلى غربه ثم من غربه إلى شرقه، فأسرة (أبو مدين) من الأسر المعروفة في ليبيا ووالدته من أصول جزائرية.

ولقد اكتوت هذه الأسرة بما اكتوى به الشعب الليبي من حروب ومآسي واستعمار إيطالي وعطش وجوع وتشرد ومعتقلات ومذابح تفنن فيها نظام موسوليني الفاشستي.

كما زاد الوطن بؤساً اتخاذه مسرحاً للحرب العالمية الثانية، حيث تبادل على امتلاكه واحتلاله الحلفاء والمحور لعدة مرات وعدة سنوات وكل محتل جديد يقوم بتصفية مؤيدي أو من يتوقع أنهم يؤيدون سابقه، وكل جيش من الجيوش يقوم بتجنيد مجموعات من الشباب الليبي يذهبون وقود حرب لا ناقة لهم فيها ولا جمل ولا خنزير ويزرع تراب الوطن بالقنابل والألغام والمتفجرات.

وفي هذه الظروف الكالحة عاش الفتى مفتاح وعاش والده الذي كان يتدبر شؤون معيشة الأسرة ببيع الحطب وبعض الأشياء الصغيرة في متجر صغير في مدينة بنغازي ليعيل أسرة تتكون من زوجتين وعدة أطفال كان من بينهم مفتاح.

وكان مقدم مفتاح في أواخر عمر الوالد الذي انتقل إلى الرفيق الأعلى والفتى دون العاشرة من عمره وتركه وجهاً لوجه مع الحياة القاسية.

اشتغل الولد كل ما تيسر من عمل لسنه الصغيرة، محاولاً فتح متجر والده الصغير إلى محاولة حراثة الأرض القليلة التي ورثها عن والده، وبالرغم من أن له إخوان من زوجة أبيه الأولى وبالرغم من أنهم

أكبر منه سناً إلا أن كل شخص بنفسه مشغول وفي شغل عن الآخرين، فالبلد خارباً من الحرب والمجاعة تفتك بالجميع.

وبالرغم من أن الفتى وأمه وأختاه ورثا من أبيهم البيت الذي يسكنونه وهو بيت متواضع وقطعة أرض صغيرة إلا أن مصدر الرزق غير متوفر وغير ميسر.

وحاولت الأم أن تقلد الأسر الميسورة قليلاً بأن ترسل ابنها لمعلم القرآن غير أنه لم يستطع مواصلة ذلك، بعد ثلاث سنوات وصل حفظه فيها إلى سورة «الحج» فالحياة تحتاج إلى كفاح من نوع آخر، ولقمة العيش في ذلك الزمن لا بد أن يأكلها المرء مغمسة في التراب والعرق، والمدارس الإيطالية رفضها الوطنيون المخلصون لأنها مدارس المستعمر تجعل الدارسين يلينون في بغضهم للعدو، وقد تجعلهم الطابور الخامس للمستعمر في أوطانهم، ووالدة الفتى وطنية مخلصة لوطنها عاقلة عاشت مأساة شعبها، وبذلك هي صاحبة رأي وقرار ضد العدوّ، فلن تسمح لابنها بالانتساب إلى هذه المدارس التي أنشأها العدو في الوطن على جماجم المجاهدين وفوق أديم أرض رووها بدمائهم.

التحق الفتى بمقهى يعمل فيه نادلاً يصب القهوة للزبائن ويحضر لهم الماء ويمسح وجه الطاولات بعد خروج الزبائن لاستقبال زبائن جدد يرضيهم منظر المقهى ونظافته وكان يصحو مبكراً لفعل هذا وإشعال النار لتسخين الماء الذي تعد به القهوة والشاي. وكان يحصل وراء هذا العمل على قروش زهيدة تكفي سداد رمق أسرته من الجوع.

ومن العمل في المقهى إلى العمل في فرن من أفران بنغازي يجمع نشارة الخشب ليدفع بها إلى الفرن ليؤجج اللهيب بداخله،

ويقوم باستقبال خبز البيوت التي تسعى إلى الفرن لإنضاج طعامها، وقد رضى عنه صاحب المخبز واطمأن إلى خبرته فجعله يتولى أحياناً عجن العجين وتجهيز الخبز لإدخاله في الفرن وسحبه منه، بل وحتى جلب أكياس الدقيق على ظهره الغض والفتى راضياً بما قسم الله له، إلى أن حلت الكارثة باندلاع الحرب العالمية الثانية، حيث يروي مفتاح تلك الذكريات قائلاً:

«اضطربت إذن الحياة في البلاد.. حين أخذت طائرات الإنجليز تقذف حممها على الآمنين والجيوش الإيطالية بتلك الغارات التي تبدأ ليلاً فتفزع الناس من نومهم، ويهرعون إلى الملاجيء والخنادق هرباً من الموت والدمار، وليس للغارات وقت فهي بعد العشاء أو عند منتصف الليل ومع الفجر، والمزعج حين تأتي شتاء والدنيا برد ومطر، وأعباء من عندهم أطفال أكثر إيلاماً، فيذهبون تاركين كل شيء فراراً بأنفسهم، وفي بعض الأوقات تنطلق صفارات الإنذار ويسرع الناس إلى الملاجيء الباردة والمظلمة ويمكثون هنا ساعة وربما أكثر في ذلك الظلام الدامس ثم لا تأتي الغارات تنطلق صفارات الإنذار مرة أخرى.. إيذاناً بعدم وجود غارة جوية»[1].

وتذبذب النصر والهزيمة بين المحاربين، والناس يهجرون المدن ويعودون إليها ثم يهجرونها ثانية حسب المد والجزر في هذه الحرب، والتموين شبه معدوم، والموت هو الوجبة الجاهزة في كل الأوقات، وحاول الفتى تدبير معيشة والدته وأختيه ببيع الخضار غير أن الناس في

(1) حكاية الفتى مفتاح، لمؤلفه عبد الفتاح بو مدين، الطبعة الأولى فبراير 1996، الشركة السعودية للتوزيع ص 46.

شغل عن الخضار فأين المال، وهم في حاجة إلى رغيف الخبز وشراء الخضار نوع من الترف الذي لا يلتفت إليه الناس في سني الحرب.

انتهاء الحرب

وانتهت الحرب وبانتهائها التفت الناس إلى الدمار الذي خلفته وبدأوا محاولين ترميم ما خربته الحرب، واشتغل الفتى معاوناً في البناء، يخلط الإسمنت ويمد جرادل العجينة للأسطى الذي يكون عادة فوق السور أو معلقاً بجانبه، وتعلم الفتى أن يكون معلقاً على خشبة يطلي السور بالإسمنت ويسوي مساوىء الحجر، وذلك مقابل خمسة وعشرين قرشاً هي ثروة لم يحلم بها أحد في ذلك الزمن. ويروي الفتى هذه الفترة بقوله: «.. وأعود إلى سيرتي فسرعان ما أتقنت حرفة الترقيع والبناء لأني محتاج وعندي استعداد، فإما أن أكون أو لا أكون، وأدخلت المهنة بدرجة نصف معلم وكنت أتعلق على ارتفاع عشرين متراً على ألواح مشدودة بحبال على الأسقف أو في السطح على الأصح مربوطة في أكياس رمل، ويناولني عامل سطل المونة وقطع الحجارة لأرقع الحفر في المبنى التي أحدثتها شظايا القنابل التي كانت تتساقط خلال أيام الحرب، وأنا باعتباري صغيراً عمري نحو ست عشرة سنة وخفيف وزن الجسم، ورجل مسن صعب عليه هذا التعلق في الهواء ليؤدي هذه المهمة، فقبلتها وكنت فرحاً بها..»[1].

وتنقل الفتى في هذه المهنة ووصل إلى مدينة (سلوق)[2] وإلى مدينة (المرج) وتزوجت أختاه ولم يبق له من الأسرة إلا الوالدة.

---

(1) حكاية الفتى مفتاح، المصدر السابق، ص 103.

(2) مدينة سلوق جنوب مدينة بنغازي (55) كيلومتر، أعدم فيها الطليان شيخ الشهداء عمر المختار في 16/9/1931.

الذهاب إلى الحج

لم يكن ارتباط الفتى بالأراضي المقدسة والذي كان من خلاله أمه، مرده تديناً أو رغبة في الحج فقط، فالحج كما هو معلوم لمن استطاع إليه سبيلاً.

إن مرد تعلقه بالأراضي المقدسة وجود خاله الشيخ مصطفى بدر الدين الذي كان موظفاً بالجمارك أيام الإدارة العثمانية على الجزيرة العربية، وبعد رحيل الأتراك تركه الملك عبد العزيز مسؤولاً عن الجمارك في مدينة جدة.

وكان هذا الخال يراسل أخته كلّما وصل الحجيج الليبي وتجهز للعودة يزودهم برسالة إلى أخته التي تكون قد بعثت له رسالة تخبره فيها عن أحوالها وما جد فيها في غيبته.

رافق الفتى وأمه ركب الحجيج من بنغازي في سيارات شاحنة باتجاه مصر عام 1363 هـ الموافق عام 1944 ومنها ركبوا البحر إلى جدة حيث وجد الفتى خاله ينتظره في الميناء.

وقد أدى مفتاح ووالدته فريضة الحج ذلك العام تحت رعاية خاله مصطفى وأسرته، ثم انتقل مع والدته إلى المدينة المنورة حيث يقيم ابن خاله، ولم تطق الأم الغربة وقد آثرت المعاناة والمتاعب في جسمها النحيل فتوفيت عليها رحمة الله، وبوفاتها فقد الفتى سنده الوحيد وأصبح وجهاً لوجه مع الحياة الكالحة والغربة وضيق ذات اليد وقلّة الخبرة والدراية والتجربة، غير أن الله لا يتخلى عن المستضعفين.

ويقول مفتاح عن وفاة أمه: «. . وأشهد أن وفاتها عليها رحمة الله

قد ترك لي فراغاً وأي فراغ، وكنا نعيش معاً غريبين، لا تواصل ولا معارف وقد بعدنا عن البلد الذي كنا نعيش فيه والأهل هناك وضاقت علينا المدينة، ولا أقول ضاقت بنا، وكنا راضين بذلك الامتحان، فخالي بجده وابنه قريب وإن كان مشغولاً بحياته وابنة خالي الكبرى زوج الشيخ أسعد عويضة تتفقد والدتي ـ عمتها ـ بالزيارة. . »[1].

غير أنه رب ضارة نافعة، فلقد التحق الفتى بمدرسة العلوم الشرعية وشرع يدرس دراسة نظامية رغم تقدمه في السن بالنسبة للأطفال الذين يدرسون بالمدرسة، وشرع يلتهم كل ما تقع عليه يداه من الكتب والمواضيع والمقالات وتعرف مفتاح في المدينة المنورة على مجموعة من المهاجرين الليبيين الذين غمروه بعطفهم العم زروق من طرابلس الغرب وحمزة علي أبو غرارة، صاحب متجر والعالم الجليل أمين ازمرلي ورجب أبو هلال.

والتحق مفتاح بالعمل في إدارة الجمارك بجدة بعد أن تقاعد خاله منها، وبعد أن تحصل على الجنسية السعودية التي كان لا بد منها لشغل مثل هذه الوظائف والتي كانت ميسرة ذلك الزمن، أيام المغفور له الملك عبد العزيز آل سعود.

وبدأ الشاب يتعرف على الأدباء والمثقفين، ويطلع عما كتبه الآخرون، ويطلع على المجلات الأدبية ويقتنيها ويخصص من راتبه الزهيد مبلغاً لشراء الكتب والمجلات. ويقول في هذه المرحلة: « . . وعطشي إلى المعرفة، وشعوري بما أحس من نقص كان يدفعني

---

(1) حكاية الفتى مفتاح، المصدر السابق، ص 133 ـ 134.

إلى التقتير على نفسي في مأكلي وملبسي لأقتني كتاباً، فقد كنت أعتبر اقتناء كتاب يومئذ غنيمة..»[1].

ويقول: «.. أنام ساعة ثم أستيقظ لأستأنف تقليب صفحات الكتاب الذي اشتريت، آخذ في قراءتها، فإذا شعرت بتعب الجلسة على طراحتي القطنية على خسفة وحنبل على الأرض وتكون الشمس قد غربت أضع ـ الفانوس ـ عند رأسي على صفيحة قاز فارغة، وأتمدد على ظهري وآخذ في القراءة حتى يداهمني النعاس، وفي بعض الأوقات أغفو والكتاب على صدري، ثم أستيقظ لأضع الكتاب على الأرض وأطفىء الفانوس وأمضي في نومي..»[2].

وكان مفتاح ينتقل بين الأساتذة والعلماء في المنطقة يستمع إليهم ويأخذ عنهم ويعمل بتوجيهاتهم وتصحيحاتهم ويعقد الدروس الخصوصية في اللغة والأدب، ويذكر أساتذته بكل فخر الأستاذ حمزة السعداوي، الشيخ أبو تراب وغيرهم كثيرون ويمضي الفتى في وحدته يمرض ولا من معين ويشفى ولا من فرح، ينقطع فلا يسأل عنه، ويعود فلا يفسح له في المجلس ومن أين لفتى فقير وغريب من التبجيل في وسط يجهله وفي مدن تعج بآلاف الغرباء من بلاد الإسلام.

ومع مرور الأيام بدأ مفتاح يألف محيطه بل قال إن محيطه بدأ يألفه فكسب الأصدقاء وصار يتجول في المنطقة ويقوم برحلات الصيد برفقة زملاء من المدينة يملكون سيارة وتعرف على مجموعات من

(1) المصدر السابق، ص 157.
(2) المصدر السابق، ص 158.

العاملين بجمارك جدة وألفهم وألفوه، كما تعرف على مجموعات من المترددين على الجمارك من التجار والعاملين في الحقل التجاري، وتعرف على ليبيين يشتغلون في هذا المجال أمثال إبراهيم الجروشي والشيخ حسونة البسطي.

وبدأ يرسل بمواضيع صغيرة إلى الصحف واشتغل في تصحيح بعض الصحف، وصار قريباً من المثقفين والكتّاب، حتى نجده مدعواً لحضور اجتماع اللجنة الثقافية لجامعة الدول العربية بجدة عام 1955 برئاسة المرحوم طه حسين الذي قرأ عنه مفتاح كثيراً وسمع عنه وكم تمنى أن يلقاه، وكان حضوره لهذا الاجتماع أمنية من أمنياته التي تحققت لرؤية الرجل الذي عرفه عن بعد ويستمع إليه عن قرب وكان إعجابه بحديثه كبيراً سجله في كتابه (حكاية الفتى مفتاح).

عود على بدء:

اشتاق مفتاح إلى وطنه، وقد أصبح موظفاً مرموقاً وأديباً كاتباً يعرفه الوسط الثقافي، إذ لا بد له من أن يزور الأهل في بنغازي ويلتقي بالأحياء منهم ويعرف أخبارهم.

أخذ إجازة من وظيفته، وركب البحر حيث نزل السويس ومنها إلى القاهرة براً، وواصل رحلته إلى بنغازي حيث نزل عند إحدى أخواته المتزوجات هناك. وكان اللقاء وكان الشجن والنشيج بفرحة لقائه وعدم حضور أمه معه التي ودعوها برفقته قبل أكثر من عشرة أعوام وتنقل بين الأهل، ولما حان موعد رجوعه إلى جدة رأت أخته تزويجه فتم له ذلك وعاد الرجل وبرفقته ابنة بنت خالته زوجة له ورفيقة له في الغربة وقد

أنجب منها أولاده ليلى ووديع وسلوى وسهير وأسامة وصار مفتاح يتردد على الوطن كلما سنحت له الفرصة لرؤية الأهل ورؤية الأصهار.

وأصدر جريدة (الأضواء)، وأصدر مجلة أدبية سمّاها (الرائد) استكتب فيها العديد من الأدباء والكتاب في السعودية وأصبحت مقروءة في المنطقة ولها شهرة غير أنها لم تعمر طويلاً.

كما أصدر الأستاذ عبد الفتاح أبو مدين كتابه (أمواج وأثباج) في النقد، ويقول أبو مدين عن هذه الفترة:

«إن عملي الصحافي لم ينته.. عند توقف الأضواء واحتجاب الرائد بصدور نظام المؤسسات الصحافية، ولم يقف عند كتابة المقالات في صحفنا المحلية مثل عكاظ ومجلة اقرأ وجريدة البلاد الخ. ولكنه استمر حين التحقت بمؤسسة عكاظ عام 1391 هـ في إدارتها، وخلال حرب رمضان 1393 هـ أوكل إلي مدير المؤسسة العام الإشراف على العدد الأسبوعي كمدير تحرير..»[1].

ولم يقف طموح الأستاذ عبد الفتاح عند هذا الحد، بل رأى أن يتعلم لغة أجنبية فقرر أخذ إجازة سنة بدون راتب ويذهب إلى لندن لدراسة اللغة الإنجليزية، غير أن هذا الطموح لم يوفق بالرغم من وصوله إلى لندن وانتمائه إلى مدرسة هناك، إذ أن حنينه إلى الأطفال منعه من الابتعاد عنهم، فعاد إليهم مسرعاً قبل أن يتم الدورة، ورأى أن يدرس هذه اللغة في طرابلس الغرب التي انتقل إليها للإقامة، ومواصلة الدرس الذي يقول عنه: «إن التحصيل لم يكن في المستوى الذي كنت أطمح إليه».

---

(1) المصدر السابق، ص 230.

وقرر عبد الفتاح بعد عودته من طرابلس إلى بنغازي أن يشيد بيتاً لإيوائه وإيواء أسرته، ورأى أن يطلب من الإدارة السعودية قبوله كموظف متعاقد مع وزارة الخارجية في القنصلية ببنغازي.

تلك الأيام

وهكذا عاد ذلك الفتى اليتيم الذي ترك بنغازي منذ أكثر من عقدين من الزمن فقيراً معدماً لا يعرف من شؤون الدنيا لا قليل ولا كثير، ولا من أسباب المعرفة والثقافة وهو الذي بصعوبة يكتب اسمه بالخط المغربي القديم خط الألواح. عاد موظفاً يتبختر في شوارعها في سيارة فارهة وأديباً لامعاً وصحفياً مبدعاً يملأ اسمه الأسماع وهكذا هو التصميم والإرادة والطموح.

غير أن أبا مدين يعود من جديد إلى جدة مروراً ببلاد الشام ويجد نفسه قد فقد وظيفته التي يعود إليها بصعوبة، وما أن استمر في جريدة عكاظ حتى عاد إلى دمشق ليصحب الأسرة التي تركها هناك. ولكن الرياح أحياناً تأتي بما لم تشته السفن، فتم الانفصال بينه وبين قريبته وحمل الأطفال معه إلى جدة وتزوج من سيدة سعودية هي الآن ربة بيته وتعتبر الأم لأولاده، كما زوج أولاده وبناته في السعودية.

النادي الأدبي في جدة

الأستاذ مفتاح أو عبد الفتاح أبو مدين هو الآن الرئيس للنادي الأدبي في جدة، هذا النادي الذي أصدر قرابة المائة عنوان في مختلف فنون الآداب والمعرفة، وعقد الكثير من الندوات والمحاضرات واللقاءات الأدبية، وهو شعلة من النشاط مبعثها هذا الكهل الليبي القادم من مرتفعات الجبل الأخضر.

ولقد قدر لي أن ألتقي بالأستاذ عبد الفتاح في مهرجان الجنادرية قبل سنتين حيث سمعت به وبنشاطه، وكانت تربطني معرفة وصداقة مع ابن عمه المرحوم السيد أبو مدين وهو مطرب مشهور وصاحب ثقافة عامة، ولغته الإيطالية جيدة اشتغل معنا في مؤسسة الصحافة الليبية كمترجم إيطالي.

زرت الأستاذ عبد الفتاح في الفندق، فوجدته كهلاً في عقده السادس، جم النشاط، قوي الذاكرة أقرب إلى القصر في قوامه يتحدث بعاطفة جياشة وبصدق لا تشوبه شائبة في تواضع جم ويفتخر بعصاميته وجهاده اللذان أهلاه لأن يحتل هذا الموقع المرموق في دنيا الأدب والثقافة.

ولقد زرته في النادي هذا العام في أواخر رمضان 1423 الموافق ديسمبر 2002 في جدة.

ابتهج الرجل بلقائي وقضيت معه قرابة الساعة في جلسة ممتعة وحديث شيق وأدب جم، وقدم لي مجموعة من مؤلفاته مشكوراً:

1 ـ أمواج وأثباج.
2 ـ حكاية الفتى مفتاح.
3 ـ في معترك الحياة.
4 ـ وتلك الأيام.
5 ـ الصخر والأظافر.
6 ـ حمزة شحاتة (ظلمة عصره).
7 ـ هؤلاء عرفت.

8 ـ الحياة بين الكلمات.

كما قدم لي مجموعة من المطبوعات التي أشرف على طباعتها نادي جدة الثقافي.

إن الإنسان ليفخر بأمثال هذا الرجل ويتمنى له الصحة والعافية وطول العمر، حتى يثري المكتبة العربية ونتخذ من حياته رمزاً للكفاح والمثابرة والصمود والشموخ والعصامية.

الشيخ حسونة البسطي

لم أسمع بهذا الرجل قبل وصولي إلى المملكة السعودية ولم يخبرني أحد بوجوده في الجزيرة العربية، ولا يوجد له أي ذكر في الوسط الثقافي الليبي.

غير أنني وجدت ترجمة له كتبها أستاذنا الكبير عبد الفتاح أبو مدين في كتابه (هؤلاء عرفت).

يقول: إنه ولد في طرابلس الغرب عام 1300 هـ قبل الاحتلال الإيطالي للبلد، من أسرة ميسورة، حيث درس في الكُتاب لحفظ القرآن الكريم، ثم التحق بالمدارس التركية ولم يواصل تعليمه فيها فتركها.

ونظراً لأن أسرته من العائلات الطرابلسية الميسورة لم يزاول أي عمل يكتسب منه رزقه، بل تفرغ مع والده لإدارة أملاكه.

وعندما انسحبت تركيا من ليبيا وخرجت مئات الأسر الليبية مهاجرة من وطنها إلى مختلف البلدان المجاورة ركب حسونة باخرة متوجهة إلى مالطا حيث وصلها واستقر بها عدة أشهر ثم ارتحل منها إلى الإسكندرية فالقاهرة ومن مصر ركب القطار إلى يافا وحيفا في فلسطين وهي حينذاك تحت الإدارة العثمانية، ثم ركب سكة حديد الحجاز متوجهاً إلى المدينة المنورة.

وبعد قيام حركة الشريف حسين وانتصارها ورحيل الأتراك من الحجاز ارتحل معهم إلى تركيا واستقر في (أدرنة) حيث تستقر مجموعات من المهاجرين الليبيين، ثم عاد إلى المدينة المنورة واستقر بها. وتعرف على الكثير من الأعيان والوجهاء والمقربين من الملك عبد العزيز رحمه الله.

كما التقى بمواطنيه خالد القرقني وكذلك بشير السعداوي الذين كانا مستشارين للملك عبد العزيز، ونوري السعداوي وخليفة بن شعبان.

وكان حسونة البسطي محل تقدير وتبجيل من هؤلاء وغيرهم، وكانوا يزورونه في منزله الذي يحتوي على مكتبة كبيرة بها الكثير من الكتب والمراجع ويقول الأستاذ عبد الفتاح أبو مدين:

«وكانت مكتبة الشيخ حسونة مرجعاً لبعض طلبة العلم ممن يعرف، يأتون إليها للمطالعة والنقل عنها ومنها، وربما أُتيح لبعضهم أن يستعير كتاباً أياماً، وربما رده ولربما لم يرده، وهذا تعامل لا يعجب الشيخ وهو مكره أمام من يعرف..»[1].

ولم تكن حياته في الجزيرة العربية ميسرة بل قاسى الضنك والتعب وتنقل فيها على ظهر حمار وفي إحدى المرات كاد أن يقتله العطش عندما خرج من الطائف في رحلة وضل الطريق ولم يعثر عليه إلا بعد ثلاثة أيام وهو غائب عن الوعي من العطش.

ولما أن الرجل لم يتزوج في حياته القلقة والمتنقلة وبذلك فقد

---

(1) عبد الفتاح أبو مدين، هؤلاء عرفت، ص 146.

نعمة الاستقرار والرعاية في آخر أيامه حيث لا ولد ولا زوجة ترعى شيخوخته.

وطال به العمر مائة عام وعام عاش حسونة البسطي منها أكثر من ثمانين عاماً بالجزيرة العربية تنقل بين بلدانها وجبالها ووهادها. وزار أكثر البلدان العربية، وعندما اشتاق لرؤية بلده ليبيا ركب باخرة الحجاج الليبيين ووصل معهم إلى ميناء طرابلس وألقى نظرة على شاطئها الجميل ومبانيها البيضاء الزاهية ورفض النزول إلى البر حتى لا يرى المستعمر الإيطالي يستبيح مرابع صباه ومراتع أنسه، وواصل رحلته إلى مرسيليا والجزائر، إنها الوطنية التي لا تبارى.

واشتاق إلى الوطن مرة أخرى وحاول زيارة ليبيا بعد الحرب العالمية الثانية وتوسط له السيد يوسف ياسين أحد مستشاري الملك عبد العزيز لدى الإنجليز الذين سمحوا له بالزيارة بعد مكاتبات ومراسلات، انتقل بعدها إلى مصر حيث استقبله الأستاذ خير الدين الزركلي الذي أخبره بأن الإنجليز سمحوا له بزيارة طرابلس، فرفض حسونة هذا العرض، محتجاً على أنه لن يدخل بلده بأمر الإنجليز وعاد إلى السعودية.

وفي عام 1968 زار تونس للعلاج لدى طبيب العيون التونسي الدكتور ـ الهادي الرايس ـ ومن تونس زار طرابلس الغرب ولم نعثر على أي إشارة لهذه الزيارة في الدوريات الليبية أو الصحف الليبية، ولم نجد أحداً من بقايا أسرته المقربين في طرابلس الغرب يحدثنا عنها.

وفي عام 1970 زار الشيخ حسونة طرابلس الغرب مرة أخرى، ولا ندري إن كان قد بقي بها مدة طويلة أم قصيرة، ولا نعرف عن مصير

صوت http://mostafamas.maktoobblog.com التوحيد

أملاك أسرته في طرابلس والتي لا شك أن الطليان قد عاثوا بها وصادروها كما صادروا الكثير من أملاك المجاهدين والمهاجرين، ودفعوا بآلاف الأسر الإيطالية للسكن في البيوت المصادرة والتصرف في الأملاك المصادرة، وقد تكون أملاك أسرة البسطي من ضمنها.

غير أننا نجد إشارة عابرة للأستاذ عبد الفتاح أبو مدين يقول:

«حدّث الشيخ حسونة أنه كتب إلى ابن أخته في طرابلس الغرب عبد الرحمٰن القلهود بطلب عون مادي، فأرسل إليه ما جمع فأخذ ينفق منه بحساب. .»[1].

إذن أسرة القلهود وهي من الأسر المعروفة في طرابلس الغرب لها علاقة مصاهرة ودم مع أسرة (البسطي) وهم يعرفون ذلك.

وكان الشيخ حسونة على علاقة بكثير من الليبيين المهاجرين بالحجاز وكذلك المغاربة والجزائريين إلى جانب السعوديين الذين أحبوه وقدروه حق قدره.

فمن أصدقائه إلى جانب بشير السعداوي، وأخيه نوي، وخالد القرقني الشيخ محمد الونيس عالم جزائري مهاجر في المدينة.

وكذلك من أصدقائه الشيخ البشير الإبراهيمي وحسين العويني (رئيس وزراء لبنان لاحقاً) ومصطفى ميرة وعبد السلام كامل، والأمير عبد الله الفيصل وغيرهم كثيرون.

ويقول عنه أبو مدين:

(1) عبد الفتاح أبو مدين، المصدر السابق، ص 158.

«كان الشيخ حسونة نموذجاً للصداقة، والحب والوفاء والعون والإيثار، وصفاء النفس، والسعي في الخير، وخدمة الناس ممن يعرف وممن لا يعرف، وكان مجاب الرجاء كما كان كبير الأمل في ربه، وكان شجاعاً، لا تفزعه هموم الحياة ولا يأبه لها، كان قوي الإرادة، لا يخاف الموت، وطال به مرضه، فكان كل يوم يزداد صبراً، وكان إحساسه الداخلي في تعبيره بأنه أثقل على أصدقائه وحمَّلهم الكثير، وكانوا سعداء بهذه الأثقال، ولكن دوامه من المحال»[1].

ولقد تحول الشيخ حسونة في زيارات متقطعة في تركيا والعراق وبلاد الشام ولبنان ومصر، كما زار الخليج كلّه وذهب إلى مدائن صالح في أيام شبابه.

وفي أواخر أيامه أوقف مكتبته العامرة على رباط عثمان بن عفان رضي الله عنه

وفي يوم 17 رمضان سنة 1401 هـ وافاه الأجل المحتوم عليه رحمة الله عن عمر ناهز المئة عام وعام قضاها في التجوال وجمع الكتب والمخطوطات وعمل الخير وإغاثة الملهوف، جزاه الله خيراً، ولم يترك أولاداً إذ أنه لم يتزوج طيلة حياته.

ولما سأله أبو مدين عن سبب ذلك كان ردّه عليه رحمة الله:

«. . عشت أيام شبابي مشرداً غير مستقر، وما أردت أن أجني على امرأة أتزوجها ثم تلاقي من العناء ما ألاقي فما ذنبها. . »[2].

(1) عبد الفتاح أبو مدين، المصدر السابق، ص 156.
(2) عبد الفتاح أبو مدين، المصدر السابق، ص 126.

ورحم الله أبا العلاء المعري حيث يقول:

هـــذا جنـــاه أبـــي علـــي ومـــا جنيـــت علـــى أحـــد

ولم يجن حسونة البسطي على أحد من بعده.

ولقد سألت عن حسونة البسطي في طرابلس الغرب ولم أجد من يعرفه، غير أنني وجدت من يعلم بأن هناك في المدينة القديمة أسرة البسطي. وهناك (زنقة) من شوارعها الضيقة تسمى زنقة البسطي، وهناك (قوس) من أقواسها يسمى (قوس البسطي)، ممَّا يوضح أن هذه الأسرة من الأسر الميسورة في طرابلس الغرب إبان العهد العثماني، وعلمت أن أحد أحفاد هذه الأسرة ما زال يقيم بطرابلس يدعى (أسامة) ولم أستطع اللقاء به.

صوت http://mostafamas.maktoobblog.com التوحيد

محمد عبد الله الزوي

هو من قبيلة (زوية) التي كان لها الدور الكبير في حركة الجهاد الليبي ضد الاستعمار الفرنسي في تشاد والنيجر، وضد الاستعمار الإيطالي في ليبيا.

فلقد ساهمت هذه القبيلة في صد الغزو الفرنسي وخاضت عشرات المعارك وتساقط جل قيادييها في ساحة الشرف شهداء دفاعاً عن الدين والوطن.

ففي تشاد سقط شهيداً كل من الشيخ البراني الساعدي الذي كان شيخاً لزاوية بئر العلالي، وكذلك الشيخ عبد الله الطور وكلاهما في معركة (عين كلكا) عام 1907 ف.

كما سقط شهيداً الشيخ أبو عقيلة الزوي في معركة بئر العلالي عام 1902 ف وسقط شهيداً الشيخ غيث بوقنديل الزوي في معركة جالو ضد الغزو الإيطالي عام 1931 كما سقط فيها أيضاً الشيخ أبو مطاري.

ومحمد الزوي لم نستطع جمع الكثير من المعلومات عن دوره في الجهاد غير أننا نجده مرافقاً ملازماً للشيخ السيد أحمد الشريف في هجرته من ليبيا إلى تركيا ثم إلى سوريا وإلى الحجاز.

وقد رافق السيد أحمد في كل الظروف والمحن التي مرت به

وكان مراسله إلى مصطفى كمال أتاتورك عندما أحاط به الجيش اليوناني ودفعه إلى قرب أنقرة. فلقد أرسل إلى السيد أحمد الشريف يستنجد به بدعواته، فأرسل إليه هذا محمد عبد الله الزوي يحمل مصحفاً شريفاً وبرنساً وسيفاً، تبارك بهذه الأشياء مصطفى كمال ولبس البرنس وعلّق المصحف في رقبته وصلى ركعتين ثم امتشق السيف وصاح في جنوده بالتقدم مكبراً وانتصر الجيش التركي.

كما نجد محمد الزوي مرافقاً للسيد أحمد الشريف إلى المدينة المنورة حيث استقر بها معه إلى أن وافاه الأجل المحتوم عليهما رحمة الله وبركاته.

ولم أعثر على أخبار الشيخ محمد الزوي في المدينة المنورة ولا عن أولاده الذين قد يكونوا بقوا بها.

الشيخ عبد المالك الدرسي[1]

من قبيلة الدرسه المجاهدة، ومن رفاق السيد أحمد الشريف هاجر معه من ليبيا إلى تركيا، ومنها إلى الحجاز حيث استقر به المقام بمكة المكرمة، وأسَّس مكتبة بها لبيع الكتب.

وقد علمت أنه ألَّف كتاباً يذكر فيه سيرة المجاهد أحمد الشريف وهجرته إلى تركيا في غواصة ألمانية حيث كان مرافقاً له.

ولم أعثر على هذا الكتاب وفي السنوات الأخيرة من القرن الماضي توفي عليه رحمة الله بمكة، ودفن بها ، وترك مجموعة من الاولاد لم التقى بهم .

(1) في الطبعة الاولى نسبته الى مصراته إذ خلطت بينه وبين القاضي عبد المالك المصراتي الذي هاجر الى مصر إلا أن الاستاذ سالم الكيتي نبهني للخطأ فله مني كل الشكر .

من ذاكرة
الأستاذ عبد الفتاح بو مدين

ما أن شرعت في كتابة هذه التراجم التي رأيت أن أقدمها للإخوة القراء العرب والمسلمين وخاصة في السعودية وليبيا حتى رأيت أن لا مناص من الاستعانة بأستاذنا الكبير عبد الفتاح بو مدين وهو الأديب الذي عاش في المنطقة أكثر سني شبابه وصاحب العين البصيرة الثاقبة، والرجل المطلع على أحوال المهاجرين الليبيين في هذه الديار.

وقد تفضل مشكوراً بأن منحني من وقته الكثير وكتب لي من الذاكرة ما اختزنته عن رجال من ليبيا صادفهم أو التقى بهم أو عاشرهم في هذه الديار وحول الديار المقدسة فجزاه الله خيراً.

وأنا إذ أقدمهم للقراء لا أستطيع أن أزيد أو أنقص عما تفضل به أستاذنا الكبير، لأنني لم أعثر عن أي مصدر غيره يثري لي ترجمة هؤلاء الرجال. ولعلَّ من القرَّاء الكرام من يجد معلومات عنهم أو عن بعضهم يثري بها هذا السفر في طبعات أخرى، أو يشق طريقاً غير طريقنا لتقديم هؤلاء الرجال الذين برعوا في ميدان الجهاد بالسلاح أو بالكلمة أو بالقلم أو بهم جميعاً.

فإلى أستاذنا الكبير كل الشكر والتقدير والامتنان.

لفتة كريمة

إنه حس أديب نابه، والحس قيمة عالية ونعمة من الله! هذا الحس رديف الذوق عطاء الخالق، لمن شاء من خلقه! بهذا الحس الرفاف الحي، يتحسس الإنسان أشياء لا يهتم بها الكثيرون عادة، غير أن حس الأديب الملهم يدفع بصاحبه إلى ما يمكن أن يعد بعيداً في بعض الأحيان، عند أنماط من الناس، لم يمنحوا أو لم يصلوا إلى هذه المتعة الجميلة، وليست كل المتع جميلة، لأنها تختلف باختلاف البشر، ذلك أن نعم المعطي كثيرة لا تحصى، قال تعالى: ﴿**وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها**﴾ [سورة النمل، الآية 16]. . والناس فيهم الغافل، وكلتا الحالتين وبال على صاحبهما، نسأل الله السلامة!

لقد أكبر في أخي الدكتور محمد سعيد القشاط سفير ليبيا في الرياض، ومرد الإكبار، أنه رجل لمّاح، وقد أشرت آنفاً إلى نعمة الحس في الإنسان، فالدكتور وهو الأديب القارىء الواعي، يعرف قبل أن يجيء إلى الرياض، أن ثم مواطنين ليبيين، قصدوا الحرمين الشريفين، في عهد استعمار بلادهم من قبل دولة إيطاليا، وربما قبل ذلك، يوم كانت الدولة العثمانية، تحكم الوطن العربي، من محيطه إلى خليجه، حال الشعوب المسلمة الأخرى في أرض الله الواسعة، التي اختارت الهجرة إلى البلدين المقدسين، للحياة والجوار الغالي، في بلد

رسول الله ﷺ، وحول المسجد الحرام، وكان خير اختيار!.. ولقد أدركت ذلك، يوم قال لي خالي مصطفى بدر الدين، قبل أكثر من خمسين سنة، يوم تقاعد من وظيفته في الجمارك، ردًّا على سؤالي له، إنني كنت أطمع أن أدركه وهو على رأس العمل، لكي يجد لي وظيفة في كنفه، فقال: «كنا نحرث للدنيا، والآن نريد أن نحرث للآخرة»، رحمه الله رحمة الأبرار ورطب ثراه!.

واللفتة الغالية من الدكتور القشاط، أنه أراد أن يسجل عملاً نسيه أو غفل عنه غيره، وربما كان مرد ذلك حسابات ليست دقيقة، وإن صح أن ثم حسابات، والنمط الليبي المهاجر إلى الحرمين، له أشباه من الشعوب الأخرى المسلمة من أصقاع الأرض، قيّض الله أن يتوجهوا إلى الحرمين الشريفين، ليعيشوا في ساحة الرسالة الخاتمة، ويقبروا في تربة مباركة.. ربما كان هذا هدف شرائح من المسلمين، الذين سعوا إلى الحجاز عبر التاريخ، ولعلي أقسم تلك الأنماط إلى صنفين، أحدهما جاء ليحج ثم يعود إلى وطنه، والآخر قصد أن يقيم بجوار الحرمين، من هؤلاء من جاءوا آحاداً، ثم تزوجوا من الحجاز وكانت لهم ذرية، لعلَّ بعضهم تزوج من آله المهاجرين أو رجع إلى وطنه فتزوج منه، وعاد إلى حيث أتيح له الإقامة أو الاختيار، إن صح هذا التعبير!.

وكم كنت أود لو أن الدكتور القشاط، تقدم أياماً، وهو يُفضل بزيارتي في مكتبي في الأسبوع الثاني من رمضان 1423 هـ، ويقول لي: إنه شرع في الكتابة عن الليبيين الذين هاجروا إلى الحجاز.. وقدرت وأنا أكتب هذه السطور لكتاب الأخ الكريم، أن الزمن قد يكون أجدى لو تقدم الوقت شهراً، قبل أن يُتوفى أحد رموز المدينة، السيد/

حبيب محمود أحمد، رطب الله ثراه ورحمه رحمة واسعة. . فالسيد حبيب كان سيفيد في الحديث عن الذين كانوا يعيشون في المدينة المنورة!

فور وصولي إلى دار الهجرة في أواخر رمضان، أخذت أفكر وأقلِّب الأمور، فيمن سيعين على الإحاطة بالرجال والأسر الليبية المهاجرة من بلادها إلى الحجاز. . وتذكرت عم أحمد الزروق، الذي عرفته في باب المجيدي بالمدينة، يبيع الفول المدمس، وذلك بعدما حللت في المدينة، وذلك في الشهور الأولى من عام 1364 هـ ـ 1945 م وأن له ابناً هو أكبر أبنائه اسمه ـ محمود ـ. . وهاتفت أخي الوجيه الوفي الأستاذ خالد غوث، مساء يوم الإثنين 1423/9/27 هـ، سائلاً عن سبل الوصول إلى محمود الزروق، وأذكر أنه كان عنده مصنع للتمور في المدينة، والأستاذ خالد غوث ذو صلات عريضة، يعرف الناس ويعرفونه. . ورحب بعوني، على أن يهاتفني من الغد، بعد أن يخاطب بالغرفة التجارية، ليحصل منها على أحد من آل الزروق. . غير أن الرجل الهميم، عاد في الليلة نفسها، ليعطيني اسم الأخ عبد السلام محمود الزروق وهواتفه، فشكرته بما يستحق من شكر وتقدير وعون!.

وسارعت بالاتصال بالابن عبد السلام الزروق، فأجابني وأعلمته بما أريد أن أصل إليه. . وصدق أمير الشعراء القائل:

اختــلاف النهــار والليــل ينســي. .

ذلك أنني قابلت محموداً في الأرامكو السعودية بدعوة منها قبل بضع سنين، وحين افترقنا، لم نتواصل، فنسيت، ولعلَّه قد نسي. .

ووعد عبد السلام أن يبحث عن أحد من المسنين لأقابله وأستمع منه، واتفقنا أن نتهاتف ثالث يوم عيد الفطر المبارك إن شاء الله!.

وجاءني أخي الأستاذ محمد حميدة، أحد الأخيار في بلد رسول الله ﷺ، وكان له شيء من إحاطة بالشيخ أمين الطرابلسي، فقص عليّ ما يعرف، فشكرته، وشكرت له سعيه إلى.. ثم ألممت بما أُتيح لي عن الرجال الذين عرفت في المدينة.. لكني صدمت بتحرز بعض الناس من الحديث عن جذورهم، لأنهم في ظنهم أنهم قد ذابوا في المجتمع الذي جاء إليه آباؤهم، فأصبحوا جزءاً منه، ونسوا أي صلة لهم بالوطن الأول الذي هاجر منه الآباء، ولا سيما ناظر وقف المغاربة، وهو من جيل يختلف عن جيل الآباء، ولو كان الأخ حمزة بن علي أبو غرارة حياً، لما حجب عليّ شيئاً مما يعرف، لأنه ليس لديه ما يخشى عليه، وقد جاءت الحاجة في وقت متأخر، فأسقط في يدي، ما رأيت وما سمعت من جيل اليوم، وليس غريباً أن نتحدث هذا، فعجائب الدنيا لا تحد!.

وسطرت من الذاكرة ما تعيه عمن عرفت، عبر سطور، إذ لا يليق أن أحشد كلاماً من الخيال، في فبركة صحافية، يكتنفها الخطأ والخلل، لتحسب على صانعها.. وعذري للأخ الدكتور محمد سعيد القشاط، أنه صح مني العزم، غير أن من خاطبت، ضن، فلم يفصح عن شيء مما يتصل به، لأنه لا يريد أن يُعرف من هو؟ وظن أنه قد اندمج في المجتمع الذي يعيش فيه، وأصبح منه، وليس من المصلحة البحث عن التاريخ، كما يقول بعض الناس.. وإلى الله عاقبة الأمور!.

جدة 1423/10/20 هـ

2002/12/24 م — عبد الفتاح أبو مدين

الشيخ أمين الطرابلسي

هو رجل يختلف عن كثير من الرجال سمتاً ومظهراً وقلة كلام، إنه نمط نادر، غير أن في أردان هذا الرجل الذي رأيت قبل أكثر من نصف قرن في المدينة المنورة، عند الشيخ أحمد الزروق، بائع الفول المدمس في باب المجيدي.. رأيته يمر مسرعاً، فيتوقف دقائق عند الشيخ الزروق، ليقول كلمات قصاراً ثم يمضي إلى داره في باب المجيدي.. وأعلم من صديقه الزروق، أن هذا العابر اسمه الشيخ أمين زمرلي، من طرابلس الغرب، والشيخ الزروق كذلك من هناك.. وأن الشيخ أمين مدرس في أحد المدارس بالمدينة، كان ذلك في عام 1364 هـ ـ 1945 م.. وخلال مرور الأستاذ أمين بصاحبه الزروق يسلم على الذين أمامه، ثم يمضي مسرعاً!

من متابعة سيرة الرجل الشفاهية، أنه كان يعمل مدرساً في المرحلة الابتدائية، في مدرسة العلوم الشرعية بالمدينة المنورة، قبل أن يعرف قدره، غير أن فطنة السيد أحمد الفيض أبادي مدير المدرسة، ومن خلال التقائه بالمدرسين، أدرك المستوى العلمي الذي عليه الشيخ أمين، فرقاه ليصبح مدرساً في الصفوف العليا.. ثم نرى الشيخ أمين قد تنقل إلى مدارس أخرى بالمدينة، وهي المدرسة الناصرية الأميرية.. ثم إلى مدرسة النجاح، ثم مدرساً في المعهد العلمي، إلى أن تقاعد!..

كانت الدراسة يومئذ ذات مستوى عال، وكان التحصيل جيداً، وكان المدرسون أكفاء، وكانوا يتابعون تحصيل طلابهم ويلتقون بهم في المسجد النبوي وفي ديارهم، ليزدادوا علماً ومعارف، بلا منٍّ ولا أجور لتلك الجهود الصادقة المخلصة، إذ كانت الحياة هينة رغم قلة الدخل المادي وكانت النفوس راضية!.

كان مستوى تلميذ الابتدائية يومئذٍ كخريج طالب الكلية المجتهد اليوم، حيث أن المناهج قوية والنجاح محقق، وليس نجاحاً صورياً، صاحبه خالي الوفاض، كما هي الحال اليوم في الوطن العربي!.

إن الشيخ أمين كان نموذجاً فريداً في علمه وحياته الخاصة، فقد كان متميزاً في العلوم الشرعية وعلوم العربية، واعترف له بذلك شيوخ الأزهر المتميزين، الذين التقوا به في المدينة، وكان حافظاً.. وامتاز إلى جانب تفوقه في علوم العربية والدين على المذاهب الأربعة، أنه كان نابغة في العلوم الرياضية، شهد له بذلك من عرفه من قرب، وكان الرجل مخلصاً في درسه، متقناً له، ناصحاً، ومن مميزاته أنه قليل الكلام سخي العطاء لطلابه ملتزماً تقياً ورعاً!.

عاش هناك بجوار صاحب الرسالة ﷺ، عيشة تقشف في حياته وهندامه، تزوج مرتين، ثم أصبح عزباً، ويقال إن له بنتاً وبيتاً في المدينة.. وكان يمشي إلى قبر سيد الشهداء، قرب جبل أُحُد كل أسبوع، ومن عادته أنه لا ينال من الطعام أكثر من حاجته، ولا يأكل أكثر من صنفين، وهو يشبه علماء المغاربة الزهاد في الحياة.. وكان له طلاب نجباء، منهم الأستاذ محمد عمر توفيق، وزير المواصلات

سابقاً، الذي اهتم بشيخه حين مرض، أن ينقله إلى لبنان ليتعالج هناك، غير أن الشيخ بعد موافقته، تراجع، لأنه آثر ألا يخرج من المدينة، فقد كانت داره المختارة، بعد مغادرته بلده ليبيا في العهد الإيطالي إلى البلد المختارة دار الهجرة. . وكان له ما أراد في ذلك الجوار الكريم في دار الحنان! وكنت أتوقع أن يكتب عن علم الرجل وسيرته في درسه لطلابه، القادرون من طلابه النجباء ومنهم الأستاذ محمد عمر توفيق ومن إليه، الذين أفادوا منه وعايشوه وعرفوه من قرب، فكان عندهم رمز الوفاء والود والإكبار. . والتاريخ الإسلامي حافل بهذه النماذج الفريدة، التي كانت في الشيخ أمين الطرابلسي، نحو طلابه، أداء لرسالة العلم التي عرف قدرها، فوفّاها بأمانة، لينتفع بها السارعون إلى المعرفة، لا سيما في بلد رسول الله ﷺ، الذي شع فيه نور الرسالة السماوية الخاتمة، فدخل الناس في دين الله أفواجاً، ثم كانت الفتوحات، التي عمت أرجاء الأرض، تحمل إلى الناس هدى السماء على يد خاتم الرسل ﷺ إلى الناس كافة، «لكي لا يكون للناس على الله حجة»!.

أحمد الزروق

من طرابلس الغرب، رجل سمح فاضل، ونرى أن أكثر المهاجرين إلى الحرمين الشريفين من فقراء الناس، فهم قد آثروا العيش في الأراضي المقدسة، بعد أن اجتاح بلادهم المستعمر الإيطالي المغتصب!.

الشيخ أحمد الزروق، كان يبيع الفول المدمس في باب المجيدي بالمدينة المنورة، وكان من الكادحين، غير أنه كان سعيداً بحياته، وكيف لا، وهو في ذلك الجوار الكريم، في دار الهجرة !؟.

رزق ذرية ناجحة، وكان ابنه الأكبر محموداً، بعد وفاة والده، قد أنشأ مصنعاً للتمور في المدينة، ونجح المصنع وانتشر، ثم توفي وخلف ذرية بعده ناجحة، إلى جانب إخوته الذين سلك كل منهم طريقه في الحياة.. ورأينا أن المهاجرين إلى الحرمين الشريفين، وأكثرهم في المدينة المنورة، أنهم لم يتحولوا عن مهجرهم إلى مدن أخرى من البلاد السعودية، هذا بالنسبة إلى الآباء.. أما الأبناء، فإنهم بعد توسع البلاد، سعوا إلى الرياض وجدة، سعياً وراء عيشهم، وقد أُتيح للأبناء فرص التعليم، وكونوا أنفسهم، وعملوا ونجحوا، وحققوا مكاسب في حياتهم بسعيهم وجدهم، والحياة كلها كدح وكد !.

حمزة بن علي أبو غرارة[1]

والده من بنغازي، هاجر إلى المدينة المنورة في عهد استعمار إيطاليا لبلاده، وأقام هناك، وتزوج من باديتها، وأنجبت له «حمزة»، الذي عاش يكدح، حيث كان له دكان صغير في باب المجيدي، يزاول فيه بعض العطارة، وعاش حياة كفاف، وكان يخدم حجاج ليبيا في موسم الحج، وكان أميناً جاداً، ثم تزوج من المدينة، فأنجبت له رجالاً ناجحين، فيهم دكتوران، هما علي وأسامة، ولهما إخوة.

أصبح حمزة بو غرارة ناظر وقف المغاربة، ورعى الوقف كما ينبغي، وكان أميناً، وشغل الوقف بمشاكله أوقاته، غير أنه كان ناجحاً صبوراً، لا يكل ولا يمل، والشظف غرس فيه الاحتمال وتقبل الحياة بقسوتها، ولم يكن يتبرم في حياته بضيق العيش، والصبر والقل، أفضى به إلى نجاح، لا سيما بعد أن أنجب رجالاً ناجحين على مستوى من الخلق الدمث، وأتيح لهم أن يتبوأوا مراكز، ومرد نجاحهم، لأن أباهم رباهم على أسس من الخلق والعصامية والاعتماد على النفس بعد الله، فصدق عليه وعلى خلفه ذلك المثل السائر: «من جد وجد». . وقد توفي حمزة أبو غرارة وهو قرير العين، في العقد التاسع من العشرين، رحمه الله[2].

---

(1) الغرارات: إحدى القبائل الشريفة في ليبيا، وتنتمي إلى جدها سيدي سلام بو غرارة، أخ سيدي أمحمد أبو صاع ويرجع نسبها إلى الأدارسة.

(2) لهذا الرجل أقرباء بمدينة غريان بليبيا، تسمى أسرة البنغازي.

مصطفى بدر الدين

من منطقة (بنغازي) ببرقة شرقي ليبيا، عاش بها وتعلم أيام العهد التركي ثم أصبح موظفاً في الجمرك (بدرنة) وهي إحدى مدن برقة الجميلة.

وعندما غزا الإيطاليون ليبيا عام 1911 وانسحبت تركيا بموجب معاهدة الصلح (أوشي لوزان) في أكتوبر 1912 وتركت ليبيا لمصيرها، سحبت معها أغلب موظفيها الذين رغبوا الارتحال معها، وكان من بينهم مصطفى بدر الدين ومن تركيا وصل الحجاز حيث تم تعيينه في (جمرك جدة) أو كما كان يسمى (ناظر عموم الرسوم). وهو الذي جلب المهندسين من الإسكندرية لبناء مقر الجمارك في وسط جدة القديمة.

ومصطفى بدر الدين هو خال الأستاذ عبد الفتاح أبو مدين أخ أمه، وهي التي كانت تكاتبه من بنغازي وطلب منها القدوم إليه في جدة، وهكذا فعلت مع ابنها الصغير عبد الفتاح، ولكنها توفيت بسرعة، وبقي عبد الفتاح في كفالة خاله مصطفى الذي أحسن إليه، وأودعه المدارس ليتعلم.

وكان مصطفى رجلاً خيراً مستقيماً كما يصفه الأستاذ عبد الفتاح حيث يقول: «وكان رجلاً مستقيماً جاداً..» ويقول: «كان خالي عفاً

وأميناً ومستقيماً، عاش فقيراً ومات فقيراً، وكان يمكن أن يكون من أغنى الناس ويترك وراءه ثروة طائلة، لو أن نفسه كانت متدنية وهلوعة وجشعة، ولكنه أبى أن يخون أمانته أو يفرط فيها لأن نفسه كبيرة وهي من التي عناها المتنبي بقوله:

وإذا كـانـت النفـوس كبـارا   تعبـت فـي مـرامهـا الأجسـام

كان له بيت متواضع في السحيمي بالمدينة المنورة، ولم يكن له شيء آخر، فهو رجل يعد من الفقراء وكان صريحاً، وشجاعاً وحازماً، وإدارياً ناجحاً، وكان متفرغاً للعبادة، من بيته إلى المسجد النبوي يكثر من قراءة القرآن، ويحارب التدخين، وكان يسمي المدخن حشاشاً، وترجم كتيباً عن التركية عن مضار التدخين وكان يردد قول الشاعر:

مـن يستقيـم يحـرم منـاه   ومـن يـزغ فهـو الفـائـز الميمـون

انظـر إلـى الألـف استقـام   فحرم العجمة وفاز بالأعجام نون

وكان في حياته كلها كالألف، عفة واستقامة وخلقاً وسماحة وصراحة وتعاملاً مع الآخرين، وعوناً لهم.

وفي عام 1373 هـ 1953 توفي مصطفى بدر الدين بالمدينة المنورة ودفن بها عليه رحمة الله. وترك مجموعة من الأولاد والبنات بعضهم تزوج في حياته، إذ زوج إحدى بناته لـ(محمد العالم) المهاجر الليبي في سوريا.

رجب محمد أبو هلال

أصله من صفاقس بتونس، هاجر إلى ليبيا، وأقام في بنغازي، وتزوج من أسرة ـ قرقوم ـ، ثم هاجر إلى الحجاز في العهد الإيطالي الذي استعمر ليبيا، وقصد المدينة المنورة، وعمل مراقباً في مدرسة ـ الأيتام ـ بالمدينة لعدة سنوات، ثم تحول على مدرسة العلوم الشرعية في دار الهجرة، وظل فيها حتى تقاعد، وقد انتقل إلى جوار ربه عام 1387 هـ !

لم ينجب من زوجته الليبية، وكانت المرأة شجاعة محبة لزوجها، فزوجته بواحدة من بنات المدينة، فلم ينجب منها، ثم زوجته بأخرى، فأنجبت له الذرية ذكوراً وإناثاً، وعقبه باق إلى اليوم في المدينة المنورة وجدة.

كان الرجل على خلق دمث وتقوى، وكان له الكثير من الأصدقاء والمحبين، فقد كان لطيفاً، طيب المعشر، لذلك كان له صحبة من الأخيار في البلد الطيب. . والمعروف أن تعليمه كان محدوداً، ولكنه طور نفسه بقدر ما أتيح له، والفرص في المدينة كانت أمامه متاحة، وكان عنده فراغ بعد انتهاء دوامه اليومي في المدرستين اللتين عمل فيهما: الأيتام والعلوم الشرعية، لذلك فهو قد استفاد من ذلك الفراغ في تثقيف نفسه، حتى أُتيح له أن يعمل في التدريس في المرحلة الابتدائية، رحمه الله، وقد بارك له خالقه في ذريته التي خلفها، فهم خير خلف لخير سلف!.

عبد الله القرقوري

من بنغازي، هاجر إلى المدينة المنورة، بعد احتلال إيطاليا لليبيا وأقام هناك، ورزق بثلاثة أولاد، هم أمين، وصالح، وبشير، ثم توفي في المدينة، وأبناؤه الثلاثة أحياء، عملوا في وظائف مختلفة ونجحوا، وكونوا أنفسهم حتى بلغوا سن التقاعد.. تزوج صالح وبشير وأنجبوا، أما أمين الأكبر، فإنه لم يتزوج.

عمل أمين في الحكومة في الرياض، في مطلع حياته الوظيفية، ثم أصبح سكرتيراً خاصًا للشيخ محمد سرور الصبان الذي أصبح في عهد الملك سعود بن عبد العزيز وزيراً للمالية، ثم أصبح أمين موظفاً في رابطة العالم الإسلامي حين أسندت للشيخ محمد سرور، بعد أن ترك وزارة المالية والاقتصاد الوطني.

أما صالح وبشير، فهما بعدما أكملا دراستهما في المدينة، تحولا إلى الرياض، فعملا هناك، ففي المصالح الحكومية كان صالح، أما بشير فقد زاول مهنة المحاماة، وتحولا أخيراً إلى جدة بأسرتيهما ليعيشا قريباً من أخيهما الأكبر أمين إلى اليوم!.

محمد آدم الحاسي

من محافظة البيضاء في شرق ليبيا، هاجر إلى السعودية في عهد استعمار ليبيا، وكان عزباً، وعاش في جدة وعمل في القسم الطبي بالسفارة الإيطالية بجدة، وكان يتقن الإيطالية ولعلّه تعلم في مصحة السفارة موضوع إعطاء الحقن للمرضى، بدليل أنه بعد أن ترك هذا العمل، كان يعطي الحقن للمواطنين السعوديين ويدخل بيوتهم، لأن الرجل كان أميناً وديناً.

وتزوج من منطقة الطائف، وأنجبت له زوجته ذرية ذكوراً وإناثاً رباهم على الأدب والالتزام الديني.

من الأبناء أبو بكر وعمر وكانا مواطنين صالحين، وعاد إلى ليبيا في الستينات، وكانت له مزرعة ومواشي في البيضاء، وبعد سنوات معدودة عاد إلى جدة، وكان أبناؤه قد كبروا وتقلدوا وظائف من الجنسية، وعمر الرجل إلى النحو 85 سنة ثم توفاه الله في عشرة التسعين الميلادية.

كان مستقيماً، محموداً، وكان قليل الكلام، وليس له الكثير من العلاقات، وكان وفياً صادقاً رحمه الله.

أحمد الذهبي

هو من المنطقة الغربية في ليبيا، وكان يقيم في المدينة، وكان ينزل عنده بعض الحجاج الليبيين، وكان بيته بين باب والسحيمي.

الدكتور فهمي الحشاني

كان طبيباً وتربطه بالسيد أحمد الذهبي مصاهرة، وتوفي الدكتور فهمي وخلف ابناً اسمه غازي ما زال على قيد الحياة، ويقيم في مدينة جدة.

إبراهيم الجروشي

من المنطقة الغربية في ليبيا، كان يقيم في مكة في الأربعينات من القرن العشرين، وكان عـزباً لم يتزوج، وتوفي بمكة ودفن بها عليه رحمة الله.

خليفة بن شعبان

من المنطقة الغربية في ليبيا، كان يقيم في مكة وكانت له ذرية وكان صديقاً للشيخ حسونة البسطي وبشير ونوري السعداوي وخالد القرقني، وكان يضع (البازين)[1] لهؤلاء الرجال الليبيين حيث يقدمون من الرياض مع الملك عبد العزيز على الطائف في الصيف، والشيخ حسونة الذي يعيش بجدة يلتحق بهم ليستأنس بهم ويشاركهم في أكل البازين.

وكان المستشار الأستاذ خالد القرقني، حين يضع ابن شعبان (البازين) يقول لمن حوله: اغلقوا باب المنزل حتى لا يطلع عليكم السعوديون وأنتم ـ ترفسون ـ في البازين فيضحكون عليكم، وهذا من حرص القرقني ودقة ملاحظته رحمهم الله.

(1) البازين: أكلة شعبية ليبية تصنع من دقيق الشعير وتعصد ويوضع عليه المرق واللحم ويؤكل بالأيدي.

محمد الزقوزي

كان في المدينة غلام في الخمسينات الميلادية طالب في دار الأيتام، مما يدل على أنه كان يتيماً، وهو من شعبية بنغازي، ولم يعرف له عقب بعد.

الحاج بشير

كان مهاجراً في المدينة وهو من منطقة طرابلس، ولم تعرف له أخبار اليوم.

المصادر والمراجع

1 ـ حكاية الفتى مفتاح، عبد الفتاح أبو مدين.
2 ـ هؤلاء عرفت، عبد الفتاح أبو مدين.
3 ـ ديوان شعر، سليمان باشا الباروني.
4 ـ صفحات خالدة من الجهاد الليبي، زعيمة الباروني.
5 ـ سليمان الباروني آثاره، محمد جبران.
6 ـ نماذج في الظل، علي المصراتي.
7 ـ أعلام من الصحراء، د. محمد سعيد القشاط.
8 ـ الصحراء تشتعل، د. محمد سعيد القشاط.
9 ـ خليفة بن عسكر، د. محمد سعيد القشاط.
10 ـ معارك الدفاع عن الجبل الغربي، د. محمد سعيد القشاط.
11 ـ من قيادات الجهاد الليبي الشيخ علي كلة والشيخ المبروك الغدي، د. محمد سعيد القشاط.
12 ـ الملك عبد العزيز وألمانيا، فهد بن عبد العزيز السماري.
13 ـ العلاقات السعودية اليمنية، محمد سعيد منشط الشعفي.
14 ـ ميلاد دولة ليبيا الحديثة، محمد فؤاد شكري.
15 ـ أعيان علماء ليبيا، ناصر الدين محمد الشريف.
16 ـ أعلام ليبيا، أحمد الزاوي الطاهر.
17 ـ جهاد الأبطال في طرابلس الغرب، أحمد الزاوي الطاهر.
18 ـ المجاهدون في فلسطين، طارق الأفريقي.
19 ـ حرب الغوريلا، طارق الأفريقي.
20 ـ حرب الغازات السامة، طارق الأفريقي.
21 ـ هنا برليـن حين العرب، الجزء الأول، الطبعة الثالثة، شركة فرج الله للمطبوعات، يونس بحري.
22 ـ مركز جهاد الليبيين.
23 ـ مجلة الإخاء.

فهرس المحتويات

لا تنسى ذكر الله